LE SAINT ENSEIGNANT

JEAN-BAPTISTE DE LA SALLE, SAINT PATRON DES ÉDUCATEURS

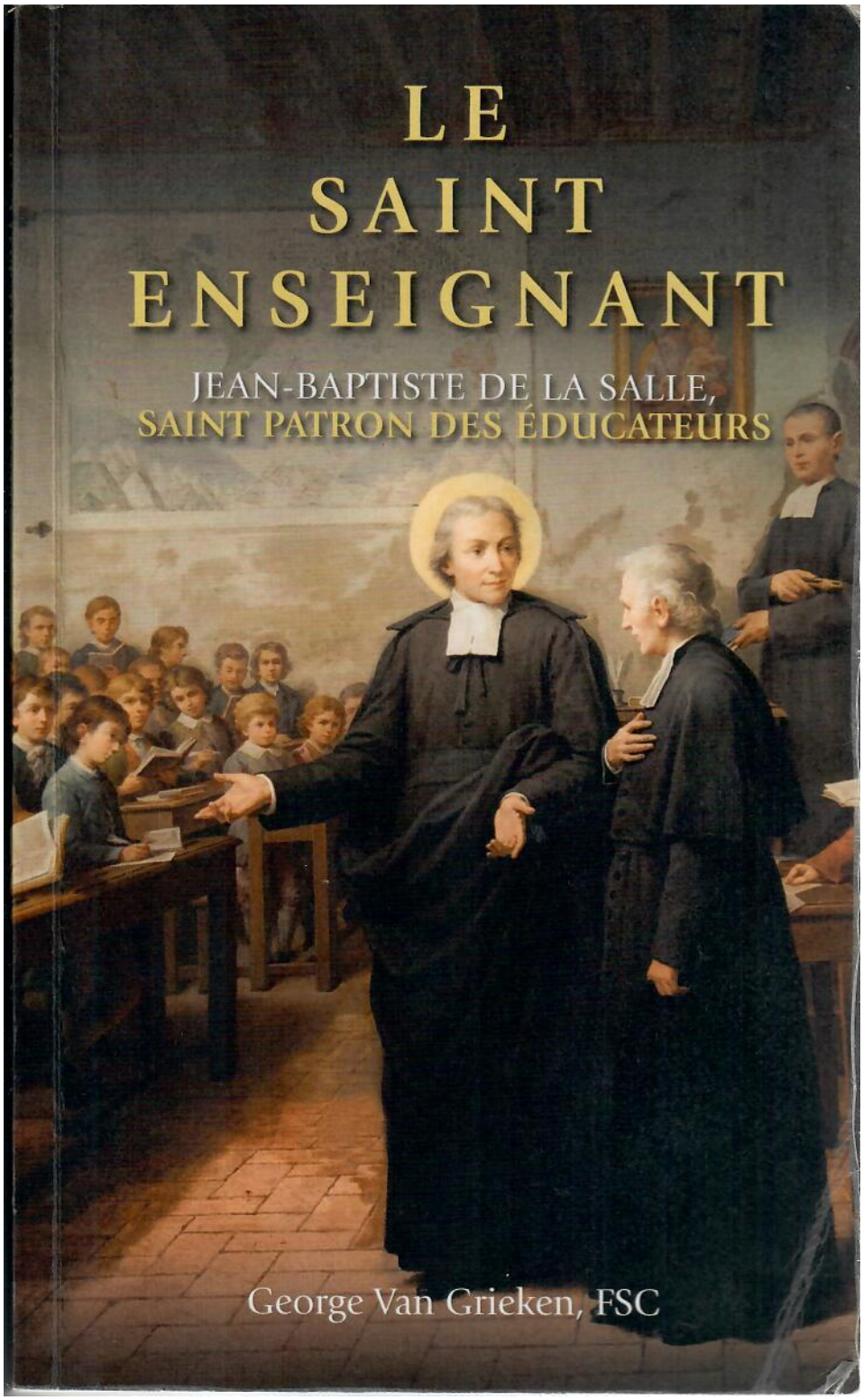

George Van Grieken, FSC

القدّيس المعلّم
يوحنا دلاسال
شفيع المعلّمين القدّيس

جورج فان غريكن
من إخوة المدارس المسيحيّة

ترجمة : أسمهان علم

فهرس

١ مقدّمة
٢ كلمات دلاسال الخاصّة
٣ عالم دلاسال
٤ السّنوات الأولى
٥ السّنوات المركزيّة
٦ السّنوات الأخيرة
٧ الأجيال اللّاحقة
٨ للغوص أبعد
٩ المراجع

لوحة الفنان جيوفاني غاغلياردي ١٨٦٠...١٩٠٨

مقدّمة

أبصر القدّيس "يوحنا دلاسال" النّور سنة ١٦٥١، وعاشَ في مدينة روان في فرنسا حياةً لم يكُن قد تخيّلها حتى عبورِه إلى الحياة الأبديّة في ٧ نيسان ١٧١٩. وبعد إعلانِ قداستِه سنة ١٩٠٠، أُعلن قدّيسًا شفيعًا لجميعِ مُعلّمي الشّبيبة في ١٥ أيار سنة ١٩٥٠. هذا الكتاب الصّغير يقدّم بعضَ تفاصيلِ حياتِه المتميّزة.

هو إذاً شخصٌ أسّسَ لطريقةٍ جديدة للتعليمِ ولمجموعةٍ فريدةٍ من المدارسِ الكاثوليكيّة التي دُعيَت في زمانِه بِ "المدارس المسيحية".

إنّ المؤسّسة التي تولّت إدارتَها جماعةٌ أُطلقَ عليها سريعًا اسمُ إخوةِ المدارسِ المسيحّيّة ما زالَت في يومِنا هذا تحملُ التّسمية نفسَها " أو كما تردُ غالبًا عندَ الأنغلوساكسون "إخوة دلاسال المسيحيّين" وتحملُ الرسالةَ نفسَها وهي "تقديمُ تربيةٍ إنسانيّة ومسيحيّة للشّباب، بِخاصّةٍ المُعوَزينَ منهُم". ذلكَ بحسبِ الخدمة التي أوكلتها إليها الكنيسة.

إنّ بحثَ "دلاسال" الدّؤوب والأمين والحماسيّ لمعرفة الطّريق الّذي يريدُه الله أن يسلكه، قد أدّى إلى الحركة التربويّة العالميّة التي تستمرّ بالتّنامي كلّ سنةٍ والتي يُنشّطها الأخوة - وهم الرّهبان الذين كرّسوا أنفسَهم لتلك الرّسالة- وكذلكَ مُربّونَ آخرون كُثُر كان مصدرُ إلهامِهم كاريزما القدّيس "يوحنا دلاسال".

ونجدُ في قصّة حياتِه وفي كتاباتِه وفي روحِه الحيّة شيئاً ما يتجذّر في قلوبِ المُعلّمين في كلِّ أقطار العالم. فمهما كانَ أصلُهم وإلى أيّة ثقافةٍ انتموا، تجذبُهم الرّؤيا والمقاربة التربويّة التي تُذكّرهم بالسّبب الذي من أجلِه التزموا أساسًا بالتّعليم. فيهِ نكتشفُ شخصاً وكاريزما يستحقّان أن يعرفهما بِخاصةً كلُّ من يعمل في حقلِ التّربية. إنّهُ شخصٌ ملفتٌ ما يزالُ يؤثّرُ في تكوينِ عالم التّربية الحاليّ بشكلٍ لم يكُن هو بذاتِه ليتصوّره، وما زالَ مُلهِماً المربّينَ بكلّ أطيافِهم، ومؤثّراً في طريقةِ نظرتِهم لتلاميذِهم وللمعلّمينَ ولعمليّةِ التّعليم. إنّ لكتاباتِه وحدسِه ومثلِه صدىً طبيعيّ رائع لدى المُربّينَ والمُربّيات من كلّ أنحاء العالم. إنّ "يوحنا دلاسال" هو قدّيسٌ حقيقيّ بالنسبةِ إلى جميعِ المربّين.

جورج فان غريكن،
من إخوة المدارس المسيحيّة.

وفقاً لكلامه الشّخصيّ.

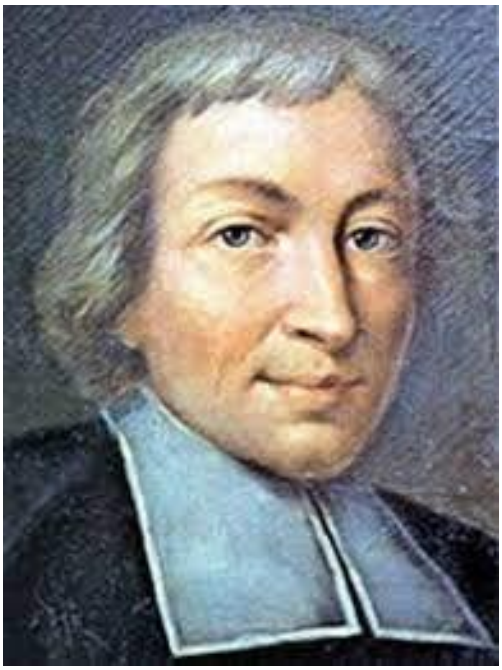

صورة القدّيس "يوحنا دلاسال"

رسمها "بيار ليجي Pierre Leger" سنة ١٧٣٤، وقد تمّ تبنيها كصورةٍ رسميّةٍ للمؤسّس وهي تذكّر بالوصف الدي قام به كاتب سيرته الذي عاش معه: "كان وجهه سعيداً على الدّوام، هادئا ولا يتأثّر بشيء... صورة الطّيبة التي عُرف بها تخلق الفرح بين من تواجدوا معه" (بلان Blain، الكتاب الرابع، صفحة ٣٠٨)

لم تكُن لدى "يوحنا دلاسال" مُطلقاً النيّة في تأسيس مؤسّسة دينيّة ولا بطبيعةِ الحال حركة تربويّة حَدَت بالبابا "بيّوس الثاني عشر" سنةَ (١٩٥٠) لإعلانِه قدّيساً شفيعاً لجميعِ مُعلّمي الشّبيبة، وتضمّ تلكَ المؤسّسة لغاية سنة ٢٠٢٠: ٣،٥٠٠ راهب و٩٣،٠٠٠ شريك لساليّ يعلّمون ١،٠١٢،٠٠٠ تلميذ في أكثرَ من١،١٣٠ مدرسة وفي ٨٠ بلد. جُلّ ما كان يصبو إليه في شبابِه هو أن يصبحَ كاهناً صالحاً في كنيسة فرنسا في القرن السابع عشر.

ولكن بعد سلسلةٍ من الأحداث، وقبلَ حتى أن يتنبّه لذلك، وجدَ نفسَهُ ملتزِمًا بجماعةٍ من الشُبّان تنقصُهُم الأناقة وثقافتُهم شبهُ مُنعدِمة، وقد كانوا مسؤولينَ عن مدرستين أو ثلاثَ مدارسٍ مجانيّة تابعة للأبرشية في مدينتِه. لقد خُصّصت تلك المدارس للصّبيان الذين تتراوحُ أعمارُهم بين ال١٠ وال١٤ عاماً وقد كانوا يعيشون في الشّارع وكانت خُبُراتُهم في مجالاتِ ألعابِ الحظّ والمُشاحنات والرّذائل الصّغيرة تمنعُ عنهُم أيّ تفكيرٍ بالقراءة والكتابة وتحمّل المسؤولية. فيما بعد كتب "دلاسال":

"كنتُ أظنّ أنَّ إدارة المدارس والمعّلمين التي تولّيتُ أمرَها سوف تكون فقط إدارةً خارجيّة لا تُلزمُني تجاههم الّا بتأمين معيشتهم وأن أهتمّ بقيامِهم بواجبِهم بورعٍ واجتهاد.
لو كنت أظنّ أنّ عنايتي الشّفوقة بمعلّمي المدارس، ولو فكّرت أنّ الاهتمامَ النّابع من المحبة الخالصة بهم كان سيُلزِمُني بأن أقيمَ معهم، لكنتُ تخلّيتُ عنه... شعرتُ في الواقع بألمٍ في البداية بسبب استضافتي لهم عندي التي طالت لسنتين... يبدو لهذا السبب أن الله الذيُ يسيّرُ كلَّ الأمورِ بحكمةٍ ولطف ولم يعتَد أن يخالفَ البشر في ميولِهم، وقد كانت مشيئتُه في أن ألتزمَ بالاهتمام الكليّ بالمدارس، فحقّق ذلك بشكلٍ خفيّ خلال فترةٍ طويلة بحيثُ إنّ كلّ التزامٍ كانَ يقودُني إلى التزامٍ آخر من دون أن أكونَ قد توقّعتُه في البداية." [1]

كيفَ إذاً حدثَ كلّ ذلك؟ لن ندخلَ في كلّ التّفاصيل الجذّابة، إنّما يمكننا بسهولة أن نقدّمَ نقاطَ القوّة. أمّا أولئك المهتمّون بصورةٍ أكثرَ اكتمالاً عن حياة السّيّد "دلاسال" فيجدونَ مراجعَ يُنصح بها في نهايةِ هذا الكتاب الصّغير، وهي توفّر لهُم فرصةً للتّوسّع في إدراكٍ أعمق لقصّة حياتِه وطباعِه وكتاباتِه.

رسم لويس الرابع عشر ملك فرنسا سنة ١٧٠١(١٦٤٣-١٧١٥)

في لباس تتويجه للفنان ريغو كوندي شانتيRigaud Condé Chantilly(١٦٥٩ -١٧٤٣)

عالم السيّد "دلاسال"

كَبُرَ "دلاســال" في عالمٍ لا كهرباءَ فيه ولا ســيارات ولا تلفزيونات، بِدون راديو، ومن دون نصــوص، وبلا كمبيوتر وإنترنت. لم تكن لديهِ إمكانيّةَ أن يضـــغطَ على المفتاح ليكونَ لديهِ نور، ولم يكن باســـتطاعتِه التّنقّل سريعًا إلى حيثُ يشاء، وما كانَ قادرًا على التّثبّت من أمورِه بواسطةِ الهاتف الذكيّ، ولم تكن له قدرةُ التّواصل الفوريّ مع أيّ شـــخصٍ على الأرض. عالمُهُ كان عالمَ ضـــوءِ الشّـــموع، والعربات، والسّـــير على الأقدام، والمكتبات، وكتابة الرّسائل، والمحادثات، وزيارات المنازل، كان عالمُ أمراضٍ ووفياتٍ متكرّرة، عالمَ طبقاتٍ اجتماعيّة راسخة ومحدوديّة ثقافيّة.

الإطار الاجتماعيّ والاقتصاديّ

كان عهدُ الملك "لويس الرابع عشـر"، " الملك الشّـمس" الذي كان يسـود على فرنسـا بيدٍ من حديد إنّما بذكاء. كان زماناً قاعدتُه الطّبقة الاجتماعيّة، وحسن التّصرّف والامتيازات والدّسائس السّياسيّة والحياة الرّغيدة، حتى في أوسـاطِ الكنيسـة. أضِـف إلى ذلك أنّ الدّولةَ كانت تنخرطُ في حروبٍ متتالية وتضـعُ ضـرائبَ على الشّـعب بِحسـب قدرتِه على الاحتمال، وكانت تتّبع نظامَ حكمٍ تتسـاوى فيه الاسـتثناءاتُ والتّطبيقات، وقد جعلَ ذلكَ من فرنســـا لِمدّةٍ من الزّمن "قوّةً عظمى". خلالَ تلك المدّة بقيَ الفقراءُ على حالِهم في حينَ ازدادَ الأغنياءُ ثراءً، بينما كانَ لعددٍ لا بأسَ بهِ من الحرفيّين والتّجار وصغارِ الموظّفين تأثيرٌ متعاظمٌ في الشّؤون العامّة.

على الصّعيد الاقتصاديّ كانت أوروبا خليطاً من "الميسورين" و "المعوزين"، ففي حين كانت بعضُ البلدان أو بعض المناطق في البلد الواحد تنعمُ بالرّخاء، كانت مناطق أخرى في حالِ ركود. وكان يتوجّبُ دفع رســوم جمركيّـة في كلّ مدينـة أو إقليم تمرُّ فيهـا المنتوجـات، وبنـاءً على ذلـكَ كـان التّهريـبُ طريقـةَ عيشٍ مقبولـة. بالإضـــافة إلى ذلكَ، كان الاقتصـــادُ الأوروبي المرتكز في الجزءِ الأكبر منهُ على الزّراعة، يتعرّضُ لأزماتٍ متكرّرة، بِخاصّـــة حينَ تكونُ في ســـنةٍ ما، المواســـمُ ســـيّئة. فَعندَ حدوثِ تلكَ الأزمات كانت حُكماً تُســـتتبعُ بالمجاعة والأوبئة.

لقد كانَ ثلثا العشـــرين مليون فرنســـيّ يعيشـــان في الأرياف، في قرىً عددُ سـكّانها ما بين المئتين أو الثلاثمئة شـخص. وكانت تلك القرى تؤمّنُ الأسـاسَ الزراعيّ الذي كانت البلاد تعتمدُ عليه. أمّا المزارعُ الصّـغيرة التي تشـغلُ خُمسَ أراضـي فرنسـا فَكانت موردَ رزقٍ لِبقيّة الشّـعب. وكان سـكانُ الأرياف والمدن يسـتيقظونَ عند الفجرِ ويبيتونَ عند غيابِ الشـــمس، لذا كانت أســـابيعُ العملِ التي تمتدُّ إلى ســـتَّة أو ســـبعة أيامٍ هي المبدأ الاجتماعيّ، وكذلكَ دوامُ العملِ أربعةَ عشرَ ساعةٍ في اليوم. ونظامُ التّغذية لوجبةِ معظمِ الفرنسيّين الوحيدة في اليوم كان عبارةً عن الخبزِ والجبنة وشيءٍ يسير من اللّحمة. أمّا بالنّسبة للخضار، فقد كان البصل يُضاف إلى يخنةِ الحبوب البســـيطة بهدفِ تخثيرِها، أو بعض الخضـــار المتنوّعة التي كانت تُزرع محليًّا إذا ســـمحت الأوضـــاعُ بذلك، والأعشـــابُ التي كانت تُســـتعمَل كتوابل مع لحمةِ البقر النصـــف مشـــوية، والغنم، والخنزير والأرنب والأســـماك أو الطيور. ماءُ الشـــرب كان نادراً أو غيرَ مؤكّد، ومعظمُ المشـــروبات كانت عبارةً عن الخمرِ وشرابِ التّفاح والبيرة الخفيفة.

كانت هيئاتُ الحرفيّين في المدن بمثابةِ اتّحادات لأهلِ التّجارة كالجزّارين وصـــانعي البراميل والنجّارين والبنّائين والمعلّمين الكتبة الخ ... نســـتطيعُ اعتبارَهُم كمنظّماتٍ مهنيّة أو تجاريّة بالرّغم من أنّ وضـــعَهُم في

مجالِ الدفاعِ عن الحقوق كان أقربَ إلى الذي تعتمدُهُ النّقاباتُ الحاليّة. كانَ لكلٍّ من الهيئاتِ قوانين تنظّمُ مهنتَها الخاصّة، محدّدةً عددَ المشاغلَ والمتدرّبينَ على المهنة والمُستخدمينَ وتفاصيلَ أُخرى.. كانَ ذلكَ ينطبقُ أيضاً على أولئكَ الذين كانوا يوفّرونَ التّعليم. كانت تلكَ الهيئات توفّرُ في الوقتِ نفسِه قواعدَ عامّةً كما كانت مُعتمدةً وتحافظُ على احتكارٍ فعّال. بعدَ الجهودِ الاقتصاديّة المتفرّقة التي بذلَها وزراءُ الماليّةِ السّابقون، والذينَ نجحَ عددٌ كبيرٌ منهُم أساساً في تكديسِ ثرواتٍ شخصيّة عديدةٍ هائلة، أطلقَ جان باتيست كولبير Jean- Baptiste Colbert. ١٦٤١-١٦٨٣ ، وزير ماليّة الملك لويس الرابع عشر الصّناعاتَ الأساسيّة الرّئيسة وأمدّها بالمال فأصلحَ الاقتصادَ الفرنسيّ بسرعة ليزيدَ بشكلٍ هامّ ثروةَ الحكومة. ولكنّ العجزَ الذي سبّبتهُ تكاليفُ حرب هولندا (١٦٧٢-١٦٧٩) أدّى إلى فشلِ خُططِه فسيطرت الصّعوباتُ الماليّة من جديد على السّاحةِ الاقتصاديّة الفرنسيّة. ذلكَ التدهور الماليّ شكّلَ خاصّةً خلفيةً لأولى جهودِ السيّد دلاسال التربويّة. كانت الضرائبُ تشكّلُ مورداً هامًّا للعائدات بالنسبةِ إلى مختلفِ الهيئاتِ الإداريّة ولكن لم يكن جمعُها عادلاً ولا متسّقاً. كتبَ أحد المؤلفين أنّ النّظامَ الّضرائبيّ الفرنسيّ يبدو وكأنّهُ وُضع بهدفٍ وحيد ألا وهوَ تأمينُ الحدّ الأدنى من المداخيل للملك والثمن الأقصى لرعاياه وكان الجزءُ الأثقل يقعُ على عاتقِ الطّبقات الأكثرَ فقراً من الشعب.[٢] إنّ مسألةَ معرفة من كانَ يدفع الضّرائبَ والمبلغ الذي كان كلُّ شخصٍ يدفعُه كانَ يرتكزُ على الطّبقة الاجتماعيّة أكثرَ من أيّ شيءٍ آخر. كانَ الفلاحونَ وفقراءُ المدن والطّبقات السفلى أهمَّ المكلّفينَ بدفعِ الضّرائب للدّولة. عندَ كلّ طارئ كانت الضّريبةُ المباشرة الأساسيّة تزداد. الحدُّ الوحيد لها كانَ" تقديرُ الحكومة لقدرةِ احتمال أيّ إقليم من دونِ إثارةِ التمرّد...". كانَ الحرمانُ المرتبط بالضّرائب قد أدّى إلى ما سُمّيَ بفتنِ المعارضين la Fronde" "في باريس بينَ سنة ١٦٤٨ و١٦٥٣ الذين حاولوا بِدون جدوى الحدَّ من استيلاء الملك على حياةِ الناس وعلى جيوبِهم. ستبقى الضرائبُ موضوعاً شديدَ التقلّب بالنسبةِ إلى الشّعب الفرنسيّ.

على السّاحة الاجتماعيّة، بعد سنة ١٦٨٠ وصعودِ كولبير Colbert انطلاقاً من البرجوازيّة الّتي كانت الطّبقةُ الوسطى في تلك الأيام، ووصولِه إلى أعلى مستوى في المرافقَ العامّة في الدولة، لم يعد المنشأ المعيارَ الوحيد لقيمةِ الإنسان في فرنسا. كانَ التّجارُ والحرفيّونَ الميسورون والأساقفةُ وأعضاءُ المجالسِ البلديّة يتدافعونَ إلى مراتبِ النفوذ. كانت طبقةُ كبارِ البرجوازيّين التي تنتمي اليها عائلةُ دلاسال تتألّف من النّبلاء ومن أفرادِ العائلةِ المالكة ومن أصحابِ المِهن الطبّية والحقوقيّة ومن معلّمي الحِرَف الأكثرَ ثراءً، وكان نمطُ حياةِ أولئك مُرفّهاً. كانت طبقةُ الحرفيّينَ في تلكَ الحقبة تُشكّلُ جزءاً من صغارِ البرجوازيّين. معلّمو الحِرَف المستقلّون وصغارُ التجّار وأصحابُ الدكاكين هم من تمكّنوا من اجتيازِ الأزمنةِ الصّعبة وقد حافظوا على رفاهيةٍ نسبيّة إنّما بدونِ أن يكونَ لهُم تأثيرٌ في إدارةِ شؤونِ المدينة.

الفقراء

حالُ فقراءِ القرنِ السابع عشر تختلفُ كثيرًا عن حالِ فقراء الثّقافةِ الغربيّة الحاليّة. بحسبِ المعيارِ الحاليّ يُعَدُّ "الفقراءُ" جميعَ أولئكَ الذينَ لا يستطيعونَ أن يُبيحوا لأنفسِهم أدنى أسباب الراحة التي ينعمُ بها أضعفُ الأُجَراء. هذا المعيارُ قد يشملُ غالبيّةَ الناسِ في فرنسا القرنِ السابع عشر. غيرَ أنّ معيارَ تلكَ الحقبةِ كانَ يُعَدّ من " الفقراء" كلُّ الذينَ لم يكُن لديهم مداخيلُ منتظمة ولا مدَّخراتٍ لفتراتِ البطالة، ايّ انعدامِ الأمان الحقيقيّ الذي يُتيحُ الصّمودَ خلالَ أزمةٍ اقتصاديّة. بالإضافةِ إلى ذلكَ كانَ "المُعوزونَ" يشكّلونَ جزءاً من طبقةٍ اجتماعيّة تضمُّ جميعَ الذينَ كان انعدامُ الاستقرار هو طريقةُ عيشِهِم الدّائمة. وكانَ المعوزونَ نادراً ما يأكلون بشكلٍ كافٍ أو يصمدونَ خلالَ الشّتاءِ من دونِ مصدرِ تدفئةٍ موثوق، ولم يكونوا يتزوّجونَ قبلَ أن تكونَ لديهم

إمكانياتُ تأسيسِ عائلة، وكانَ ذلكَ عامّةً بعدَ سنِّ الثّلاثين. وكانَ "الفقراءُ والمُعوزونَ " تحتَ رحمةِ الفصول والمواسِم يمرّونَ بفتراتِ بطالةٍ وشبهِ تغذية.

كانَ في متناولِ الفقراء بعضُ الموارد بفضلِ الصّدقة. كانَ لكلِّ رعيّةٍ سجلٌّ رسميّ لجميعِ الفقراء الذينَ يعيشونَ على أراضيها، وكانت تتقبّلُ الهباتَ والمالَ من أجلِهم. كانت الأديارُ توزّعُ بانتظام الخبزَ والحساء وتقدّمُ مأوى للفقراءِ المُشرَّدين. وكانت هناكَ ضريبةٌ للفقراء تُفرضُ على جميعِ المواطنين غيرِ المُحتاجين لتغطيةِ حاجاتِ الفقراء. لقد كانَ القضاةُ عوضاً عن إرسالِ الأفرادِ الأغنياء إلى السّجنِ يستطيعونَ أن يفرضوا عليهِم غراماتٍ فادحة ويُحيلوا الأموالَ إلى منظّماتٍ مختلفة لصالحِ الفقراء. كانَ يتوجّبُ على المُدرّسينَ أن يقبلوا الأولادَ الفقراء من دونِ تكاليف، بالرغمِ من أنَّ النقصَ في الملابسِ والنّظافةِ الشّخصية ومحدوديّةِ اللّغة عندَ بعضِهِم (بِدون أن نذكرَ تكاليفَ شراءِ الحدِّ الأدنى من اللّوازِم المدرسيّة) كانت تُبقي معظمُهُم جانباً. وفي الرّسمِ العامّ للمجتمعِ الفرنسيّ في القرنِ السّابع عشر، كانَ الفقراءُ والمُعوَزونَ في وضعيّةٍ من التبعيّةِ والدّونيّة منَ الصّعبِ أن نكوّنَ عنها في يومِنا هذا فكرةً تامّة.

إنّي أؤمن يا إلهي، أنّني سأجدُكَ حيثما أذهب،
وأنّ ليسَ من مكانٍ لم يتشرَّف بحضورِك.

- شرح طريقة الصلاة.

الإطار الدّينيّ

على الصّعيد الدّينيّ، كانت فرنسا في القرنِ السّابع عشر بلداً تربطُ فيهِ الكنيسة والدّولة ارتباطاً وثيقاً. كانت الكنيسة الكاثوليكيّة تمتلكُ ما بينَ الرّبعِ والثّلثِ من الثّروةِ الوطنيّة. منذُ القرنِ الخامس وتداعي الإمبراطوريّة الرومانيّة في فرنسا، بدأت الكنيسةُ تمارِس أكثرَ فأكثرَ نفوذَها الإداريّ القويّ في البلاد. بما أنّها الأولى بينَ طبقاتِ المجتمع الثّلاث التي كانت المملكةُ تتكوّنُ منها(الإكليروس والنبلاء وعامّة الشّعب) كانت الكنيسةُ تتمتّعُ بمكانةٍ كبيرة. ففي حين كانت الكنيسةُ تستفيدُ من وضعِها القانونيّ كانت تقومُ بمهامّ اجتماعيّة مهمّة وحيويّة كبيرة. كانت كلُّ الجمعيّات الخيريّة بما فيها التّربية تحتَ رقابتِها. كانَ الإكليروسُ والرّهبانُ يشيّدونَ الأبنيةَ ويوفّرونَ الموظّفين، وغالباً ما يموّلونَ المدارسَ وبيوتَ الفقراءِ والمستشفيات التي كانت تقدّمُ ما نستطيعُ أن نسمّيهِ اليومَ "الخدماتِ الاجتماعيّة". كانَ التزامُ الكنيسةِ في إدارةِ المجتمع يمتدُّ بعمقٍ بدءًا من الملك وحتى أسفلَ السلّم. كانَ الملك لويس الرابع عشر يُعِدُّ نفسَهُ كاثوليكيًّا ورعًا ويجهَدُ في المتابعة بذلك. كان يتقدّمُ باقتراحاتٍ بشأنِ المسائلِ الدّينيّة إلى الجمعيّاتِ الاكليروسيّة ويطلبُ منها دعماً معنويّاً وماديّاً في المشاريعِ الاجتماعيّة والماليّة. كانَ ينتقي الأساقفة مُرسِلاً إلى البابا لائحةً بالمُفضّلين. كانت شخصيّاتُ الكنيسةِ الرسميّة تترأسُ محاكمَ العدلِ العُليا مع القضاةِ المدنيّين. كانت الشّرطةُ تفرضُ بشكلٍ مُنتظِم تطبيقَ الصّيامِ والإمساك خلالَ الصوم، وذلكَ مثلاً بتوقيفِ الجزّارين الذينَ كانوا يفتحونَ محالّهُم أيّامَ الجمعة. كانت كلُّ منظّمةٍ وجمعيّةٍ دينيّة تحتاجُ إلى براءةٍ ملكيّة من قِبَلِ الملك (شبيهةً بالقوانينِ الحاليّة) حتى يصبحَ لها شرعيّة. كانَ النّاسُ يُعدّونَ الرعيّة مركزًا دينيًّا وإداريًّا أساسيًّا في البلاد، وكانت كلُّ قريةٍ رعيّةً قبلَ كلِّ شيء،

وكانَ الكاهنُ يشـغلُ المرتبةَ الثّانية بعدَ النّبيلِ المحليّ. كانَ معظمُ الفرنسـيّينَ يلتقونَ جوهر حكومتهم من خلال الرعيّة.

كانت حياةُ الكنيسةِ مركّزةً وممتدّة على نطاقٍ واسع. كانَ القدّاسُ الأوّل في كنيسةِ القدّيس سولبيس Saint-Sulpice في باريس يُقام في الرّابعةِ فجرَ كلّ يومٍ بحضورِ اشخاصٍ كُثُر. كانَ الاحتفالُ ب٢٥ قدّاسٍ في اليوم الواحد أمرًا اعتياديًّا. كان اليومُ يُشكّل أيضاً جزءاً من الروتين العاديّ في مدارسِ الرعيّة الخيريّة، وكذلك كانَ الأمرُ في "المدارس المسـيحيّة" التّابعة ل "دلاسـال" وقد كانَ لهذا الاسـم في تلكَ الحقبة الأهميةُ نفسـها التي تنقلُها " المدرسة الكاثوليكيّة" في يومنا هذا، اقلّه في فرنسا.

إن لم يكن باستطاعتك أن تُصلّي، فقولي لله أنّه لا يمكنك وارتاحي؛ هو لن يرغمك على المستحيل. أو قولي له على مثال الرسل القدّيسين: يا رب، علّمني أن أصلّي، ثمّ امكثي أمامه متلاشية غير قادرة على أيّ شيء، وتلك تكون صلاتك.

- *الرسالة ١٢٦*

مدرسة الرّوحانيّة الفرنسيّة

في مدرسـةِ الرّوحانيّة الفرنسـيّة، انضـمَّ الاهتمامُ المتصـاعدُ بالتّأملِ والتّصـوّفِ إلى التّأكيدِ الكاثوليكيّ بضـمّ الإيمان إلى العملِ وهو مفهومٌ قد انبثقَ من "الإصلاحِ المضادّ" La Contre-Réforme ومن المجمعِ التّريدنتيني Concile de Trente (١٥٤٥- ١٥٦٣). وسـرعانَ ما اتّبعَت جماعاتٌ دينيّة أخرى مثالَ التجدّد الشّـخصـيّ من خلالِ التعبّد الدّينيّ وأعمالَ الرّحمةِ التي كانت قد أطلقتها كنيسـةُ الحبّ الالهيّ في إيطاليا (١٤٩٧)، فكرَّسَـت ذاتَ ها لإصـلاح الإكليروس والقيام بأعمال الرّحمة. لقد كان " للمدرسـة الفرنسـيّة الرّوحانية" المرتبطة بالكاردينال "دو بيرول"Cardinal de Bérulle تأثيرٌ هامّ على التّكوين الأساسيّ لدلاسال في الإكليريكيّة؛ ويظهر ذلك بوضوح في كتاباته.

كانت مدرسـةُ الرّوحانية الفرنسـيّة تلكَ، تشـيرُ إلى أهمّية ال kénose الشّـخصـيّة، أي إفراغ الذّات ليملأها المسيح. يقومُ المسيحيّ بأفعال إيمانٍ واضحة في " الأسرارِ المسيحيّة الرّئيسة" (الثّالوث، التجسّد، القيامة، الخ...) متجسّداً شخصَ المسيح بذاتِه و ذلكَ باعتناقِه سلوكاً و أفعالاً داخليّة تشبهُ ما كانَ المسيحُ أوّل من حقّقَ ذلكَ من خلالِ كلّ سرٍّ من أسراره وكلّ سجيّةٍ من سجاياه. حينَ ندخلُ في أحاسيس المسيح وسجاياه، إنّما ندخلُ في حقيقةِ التصّوف في خلاصِ المسيح وينتهي بنا المطافُ هكذا إلى أن نعملَ ونكونَ مثله تدريجيّاً.

كانت تلكَ أيضـاً حقبة فيها وجهة نظر الجنسـينيّة الجدّية والصـارمة حول التقتير في النعمة، والتي كانت تعملُ في إطارِ ما كانَ أتباعُها يعدّونَهُ الطّبيعة البشـريّة فاسـدة في جوهر ها، ممّا أدّى إلى النّظر في إمكانيةِ الخلاص أنّها أقربُ إلى السّـلبية. من خلالِ تحويلِ الخطيئةِ الأصـليّة والحاجة المطلقة والمتواصـلة للنعمة إلى النّقطة الجوهريّة في الايمانِ المسـيحيّ، برزَت فكرةُ معركةٍ صـعبةٍ في السّـعي إلى الخلاص. في الوقتِ نفسِـه، وُلدت السـكينيّةُ -وهي مذهبٌ صـوفيّ يقولُ إنَّ الحبّ المحض يوصـلُ إلى الفناءِ بالله في يُسـر، ويولّدُ في النفسِ سـلامًا مطلقاً يُغنيها عن العباداتِ والطّقوسِ الدينيّة- وهي موقفُ انعدامِ حركةٍ راديكاليّ، وُلدت من الرّيبةِ في المبادرةِ البشريّة في التّقتيرِ بالنّعمة، وكانت تبشّرُ باستسلامِ النفس، خصوصًا بما يتعلّقُ

بالصّلاة. أمّا بالنسبةِ إلى الأنغليكانيّة، فكانَت تصرّ على استقلاليّةِ الأساقفةِ الفرنسيّين بالنسبة إلى روما، وتنفي عصمةَ البابا الشّخصيّة وتضعُ حدوداً مهمّة للسّلطةِ البابويّة على الملوكِ الزمنيّين.

ففي حين كانَ دلاسال متأثّراً بقوّةِ بالرّوحانيّةِ الفرنسيّة وبمختلفِ التيّاراتِ الأيديولوجيّة في عصرِه، فقِهَ كيف "يدمجُ بطريقةٍ فريدة في جمعيّتِه الجديدة عدداً معيّناً من الأبعادِ المتواجدة في المدرسةِ الفرنسيّة: رسالة التّبشير، أهمّية التّعليم، الشّعور بالاحتياجات ومبدأ الخدمة وهكذا... فكما أنّ المدرسةَ الفرنسيّة قد شدّدت أمامَ ممثّليها الفرنسيّين، على أهميةِ الكهنوت كمثالٍ للالتزامِ تجاهَ يسوع، كذلكَ كانَ دلاسال يبيّنُ خدمةَ التّعليم كتعبيرٍ عن حياةِ رسول يسوع".[٤]

بكلماتٍ بسيطة، كانَ دلاسال يطبّقُ على التّعليمِ الابتدائيّ والمدرّسين العلمانيّين ما كانَ زخمُ المجمعِ التريدنتيني Concile de Trente يُطبّقَهُ على تعليمِ الكهنة والاكليريكيّات.

الإطار التّربويّ

على جبهةِ التّربية، كانَ التّعليمُ قبل حكمِ الملك لويس الرابع عشر وخلاله، مثارَ مناقشاتٍ حماسيّة تمامًا كاللّاهوتِ والسّياسة. وكانَ لفرنسا نظامٌ مدرسيٌّ راسخٌ مخصّصٌ لغيرِ الفقراء، يتألّفُ من مدارسَ وجامعاتٍ تديرُها جمعيّاتٌ رهبانيّة وكهنة ومدرّسين علمانيّين. وقد كانت التّربيةُ في فرنسا تخضعُ لرقابةِ الكنيسةِ وكانت في الجوهرِ دينيّةَ المحتوى والإلهامِ والاتجاه. وكانَ الأسقفُ النّاظرُ المحليّ للتّعليمِ الرسميّ، يتصرّفُ بواسطة ناظرِ المدارس وهو شخصٌ مُعيّن كان يهتمُّ أساساً بالمشاكلِ الماليّة الشخصيّة للمدرّسينَ الذينَ كانوا تحت رعايتِه.

كانَ المجمعُ التريدنتيني Concile de Trente قد جعلَ مجانيّةَ المدارسِ الرعائيّة إلزاميّةً (على المستوى الابتدائي) للفقراء وذلكَ بتعيينِه الكاهنَ كسلطةٍ جديدة ووحيدة مكلّفة بالإشرافِ على التّعليم الدينيّ وتعليمِ الفقراء في رعيّته. تجاوباً مع ذلكَ التّفويض أُنشئَت مدارسٌ رعائيّة متعدّدة بنجاحٍ محدود. فأصبحَ بإمكانِ الكهنة افتتاح مدارسهم الخاصّة إنّما كلُّ شخصٍ آخر كانَ مُلزماً بالحصولِ على إذنٍ من النّاظر لافتتاحِ مدرسةٍ ابتدائيّة أو التدريسِ فيها. وكانت مؤهّلاتُ مُدرّسي الابتدائيّ مختلفةً، فكانوا في أغلبِ الأحيانِ من التّجار (إسكافيّين، خيّاطين، صانعي حبال أو شموع، الخ) والذين يكرّسون يوميّاً بعضاً من وقتِهم لتعليمِ الأولاد ويكسبونَ مقابلَ ذلك دخلاً إضافيّاً. لقد اتُّهم ناظرُ مدارس باريس في نهاية القرن السابع عشر كلود جولي Claude Joly بأنّهُ قد استخدمَ في مدارسه الابتدائيّة " صغارَ الخزّافينَ والحلاّقينَ والخدمَ ومُزاولي حِرَفَ متعدّدةٍ وأصحابَ العرائس".[٥] ونادراً ما كان المدرّسونَ العلمانيين يتدرّبون، أو بالأحرى لم يخضعوا مطلقاً للتّدريب، في حين أنّهم كانوا يُعفونَ من بعض الضّرائبِ ومن الخدمةِ العسكريّة. فقد كانت بعضُ المصاريف الإضافيّة التي يدفعُها التّلاميذ، بحسبِ عددِ المواد التي يتبعونَها، تُزادُ إلى الأجرِ الثّابت التي كانت تدفعُهُ المؤسّسةُ راعيةَ المدرسة. وكانت غالبيةُ المدارسِ الرّعائيّةِ تعاني من نقصٍ في المدرّسين لدوامٍ كاملٍ المدرَّبينَ بشكلٍ وافٍ، ومن نقصِ المالِ والمباني المدرسيّة المناسبة.

حينَ التزمَ دلاسال بالتّربيةِ الابتدائيّة سنة ١٦٨٠، كانت المدارسُ بتلكَ الرُتبةِ متعدّدةً، ولو كانت تتمايزُ بشكلٍ واسع من حيثِ الأسلوب والجودة. وكان التّعليمُ الابتدائيّ يقومُ على تعلّمِ أهمّ موادِ التّربية الأساسيّة حتى

سـنّ التاسـعة. فكانوا يبدأونَ بقراءةِ المقاطعِ اللّفظيّة، ثمّ الكلمات اللاتينيّة التي كانت مبدئيّاً أسـهلَ للحفظِ وأكثرَ إفادةً، وبعدَ المدرسةِ الابتدائيّة كانَ التّلميذُ جاهزاً لدخولِ مدرسةٍ ثانويةٍ حيثُ كان يكملُ دراسَتَهُ باللاتينيّة.

سنوات الدّراسـة الأولى- التي كانَ الصّـبيانُ يعيشـونَها تقريباً بشـكلٍ حصـريّ- كانت تُؤمّنُ لهُم بطرقٍ متعدّدة، بحسبِ الطّبقةِ الاجتماعيّة والموارِد الماليّة لكلِّ واحد؛ ألا وهيَ:

- **التّدريس الخاصّ في المنزل.** كانَ ذلكَ الخيارُ المفضّـل لدى الأثرياء. تلكَ أيضـاً كانت طريقةَ التّربية التي قُدّمت لدلاسال.
- **ارتياد مدرســـة ثانويّة.** كانت تلكَ مدارس ابتدائيّة مرتبطة بجامعة. وكانَ يُفترض أن يُكمِل الصّـــبيّ دراستَهُ في الجامعة التي تتّصل بها.
- **ارتياد مدرسة الجوقة.** كانَ لأولئكَ الذين يُنشِدونَ في جوقةِ الكاتدرائيّة مدرستُهُم الخاصّة على أرض الكاتدرائيّة.
- **ارتياد "مدرســة صــغيرة".** لقد كانَ يُديرُها المعلّمونَ التّابعينَ لجمعيّة معلّمي المدارس. كانوا يتلقّونَ أجراً متواضعاً من الأهلِ ويُشرفُ عليهِم ناظرُ مدارسِ الأبرشيّة.

لوحة: قبل مقاربة دلاسال التربويّة كان معلّم المدرسة يدرّس كلّ طالب على حدة كما يبيّنه رسم إبراهام بوس Abraham Bosse

- **ارتياد مدرســـة الدّير.** كانت تلكَ مدارسُ داخليّة وخارجيّة تديرُها الرّاهبات. كانت تلكَ المدارس محصورةً بالبنات وكانت تُشكّلُ مصدرَ دخلٍ للأديار.
- **ارتياد مدرسة كتابة.** كانت تلكَ المدارس المدفوعة المرتكزة على طرقِ تعلّم الكتابة، مسؤوليّةَ جماعة معلّمي الكتابة وهم رســـمياً بحمايةِ السّـــلطات المدنيّة. إلى جانبِ الكتابة والقراءة كانت تلكَ المدارسُ تعلّمُ كيفيّةَ مسكِ دفاترِ الحسابات.
- **ارتياد مدارس خيريّة.** تلكَ المدارس التي كانَ يديرُها بيتُ الفقراء (المأوى العام أو المستشفى العام) أو الرعيّة، كانت مخصّصةً للمُعوزين، يعني لأولئكَ المُصنّفينَ بشكلٍ رسميّ فقراءَ في الرّعية.
- **مدارس صـغيرة أخرى خاصـة.** كانت للمؤسّـسـاتِ التّربويّة التي ترعاها مدينةٌ أو جمعيّةٌ رهبانيّة أو جماعةُ أشـــخاصٍ أتقياءَ أو ديرٌ أو كيانٌ آخر، اتّجاهٌ أو زبائن أو فلســفةٌ خاصّـــة. غالبًا ما كانت تبقى محليّـةً ومحـدودةً في مقدرتِهـا أو تـاريخِهـا ولا تـدومُ أكثرَ من أوّلِ جيلٍ من مُعلّميهـا. كـانَ يُمكنُ عَدَّ

المدارسِ التي أنشأها دلاسال والإخوةُ الأوائل في البداية، جزءًا من تلكَ المجموعة، وقد أسّسوا نوعًا خاصًّـا من " المدارسِ الخيريّة" التي كانت تتوجّهُ إلى جمهورٍ أوسـع، مقدّمةً بذلكَ الفئةَ الجديدة من " المدارسِ المسيحيّة".

مع ذلكَ لم يكُن فقراءُ المدينة يرتادونَ تلكَ المدارس، وحتى المدارسَ الخيريّة إلّا نادراً. كان الولدُ الذي لا يعمل، يُمثّلُ نقصًـا في وارداتِ العائلة، وكانت الصّـلةُ قليلةً بين المواد التي تُدرّسُ في معظمِ المدارس وبينَ همومِ العمّال الفقراء اليوميّة. أمّا المدارسُ الصّـغيرة والمدارسُ الخيريّة فكانت تُقدّمُ تعليمًا ينتهي بانتهائِها. وقد كانَ معدّلُ الإقامةِ في تلكَ المدارس يدومُ سنتينِ أو ثلاثَ سنوات. فَكانَ التّلاميذُ المزوّدونَ ببعضِ المعارف في القراءةِ والكتابةِ والحسـابِ وحُسنِ التّصـرّفِ والتّعليمِ الدّينيّ، يُصبحونَ متدرّبينَ في مُختلفِ المهن، أو يجدونَ ما تيسّـرَ لهُم من أعمال. أمّا أولئكَ الذينَ كانوا يأخذونَ دروسـاً خصـوصـيّةً في المنزلِ أو في مدارسَ ثانويّة على ارتباطٍ بالجامعات، فكانَ عليهِم إكمالُ دراستِهم في المحاماةِ أو الطّب أو في مركزٍ داخلَ الكنيسة.

علم التّربية

في المستوى الابتدائيّ كانَ التّعليمُ يتضـمّنُ الحفظَ غيباً وتسميعَ الدّروسِ بشكلٍ منفَردٍ أمامَ المدرّس. ففي حينَ كان التّلاميذ الآخرون إمّا يدرسـون إمّا يقومون بعملٍ يدويّ ويتفاعلونَ بشـكلٍ خلاّق فيما بينهُم، ذلكَ أنّ اللّعب شعبيٌّ جدّاً، كانَ أحدُ التلامذة موجودًا مع المدرّس مستعرضـاً معارفَهُ بالمادّة. وغالباً ما كانت المدرسـة غرفةً واحدةً مع مقاعد وطاولات -إمّا غرفة في منزلِ الأسـتاذ وإمّا غرفةً مُسـتأجرَة لهذا الغرض، أو مكانًا أمّنتهُ السّلطات. وكانت المدرسةُ تعدُّ عشرينَ تلميذاً وكانَ كلٌّ منهُم يحملُ كتبَهُ الخاصّة وعدّةَ الكتابة. ولم يكُن هناكَ ألواحٌ ولا خطوط، فقد كانَ التّعليمُ الفرديّ هو القاعدة.

وقليلةٌ هيَ المدارس التي كانت تُعلّمَ الكتابة، وتلكَ التي تعلّمُها، كانت تقومُ بتعليمِ الكتابة باللّاتينيّة بالإجمال، في المدارس الأكثرَ ثراءً. وقد كانَ جانبٌ من عبقريّة "دلاسال" يكمنُ في تقديمِه " محتوىً أوفر" في ما يتّصِل بتعليمِ الكتابة التي كانَت كفايةٌ تحتفظُ بها بغيرةٍ جماعةُ معلِّمي الكتابة كَمُلكٍ حصـريٍّ لهم.[٦] ولكنّ "دلاسـال" أدركَ أنّ الأهالي لن يرسلوا أولادَهم إلى المدرسة إذا " لم تقدِّم المدارس الصّغيرة أكثرَ من التّعليم الدّينيّ –لذا أضـحى توجُّهُه المهنيّ شـديدًا. وكانت غالبيّةُ المدارس تُعطي الأفضـليّة للقراءة على حسـابِ الكتابة." ولكنَّ "دلاسـال" كانَ يعلمُ أنّ الكتابةَ هي كفايةٌ تغييريّة، وأنّ الولدَ الذي يعرفُ القراءةَ والكتابة قادرٌ على كلّ شـيء".[٧] وهكذا سـوفَ يتمُّ تعليمُ الكتابةِ في مدارسِـه بالرّغمِ من الاتّهامّاتِ الّسـياسـيّة من قبلِ أولئك الذين يعتبرونَ هذا المجال حكراً لهم.

في مدارس تلكَ الحقبة، كانت كلُّ المواد تُعلَّمُ لكلِّ الأعمار في الغرفةِ ذاتِها. وبعضُ المدارس لم تكُن تفتحُ أبوابَها إلّا خلالَ فصلِ الشّتاء وبعضُها لثلاثة أو أربعة أيّامٍ في الأسبوع. والمثابرة لم تكن بشكلٍ عامّ منتظمةً، إنّما على سجيّةِ التلاميذ أو المدرّس. وكان التأديبُ الجسدّي يُعَدّ جزءًا طبيعيًّا من التّعليمِ الفعّال. فحتّى الملك قد أخضعَهُ معلّموه الأوائل لتلكَ الطّرق.

وما كانَ المدرّســـونَ العاملينَ في المدارس مُدَرَّبينَ بشـــكلٍ وافٍ. في ما خلا أولئكَ الذينَ كانَ أفرادٌ من الاكليروس يســـتخدِمونَهُم بعدَ أن تلقّوا لِبعضِ الوقت تدريباً في الإكليريكيّة، فَكانوا على الأقلّ يســـتفيدونَ من تدريبِهِم الفكريّ على الرّغمِ من أنَّهم لم يتلقّوا تعليماً في فنّ التّدريس أو إدارةِ الصّف. في جميعِ مدارِس فرنسا تقريباً، لم يكُن يوجَد نهجٌ منظّمٌ لانتقاءِ وتدريبِ ومرافقةِ المدرّسـينَ بعد دخولِهم إلى الصّـفوف. بالإضـافةِ إلى ذلكَ كانَ المدرّسونَ العلمانيّونَ يُخضِعونَ مواردَ الرّعيّةِ الماليّة للضّريبة، وكانَ من الصّعبِ منعُهُم، لأنّهُ من كانَ مدرّبًا بشكلٍ جيّد للتّعليم في مدرسةٍ خيريّة، كانَ باستطاعتِه بكلِّ سهولةٍ اكتسابُ مالٍ أوفرَ من عملٍ آخر. بعضُـهُم كانَ قد حاولَ تأسيسَ جمعياّتٍ دينيّة أو أخويّات مكرّسـةً لتعليمِ الصّبيان، ولكن لم تلقَ أيٌّ منها نجاحاً مهمّاً إلى حينَ ظهرَت جمعيّةُ المؤسّس "دلاسال" وإخوتِه.

تعرّفوا إلى يسوع تحت الأسمالِ البالية للأولاد الذينَ عليكُم تعليمُهم. أعبدوهُ فيهِم. -٣،٩٦

فلسفة دلاسال التّربوية

تكمُنُ عبقريةُ دلاسال في أنّهُ طوّرَ وسائلَ لتنظيمِ المدارس وتنشئةِ المعلّمينَ ومتابعتهم ومُلاءَمةِ أنماطٍ تربوية متعدّدة لتلبيةِ الحاجاتِ المحلّيّة الآنيّة، رافعاً بذلكَ رسالةَ تعليمِ العلمانيّين في الكنيسة. وما لم يُحسِن الآخرون فعلَهُ، أصبحوا يقومونَ به الآنَ أفضل. إنّ القناعاتَ الدّينيّة التي حَدَت به وبإخوته إلى رؤيةِ المسيح في الفقراء والانجذابِ نحوَ خدمةِ تربيةِ الفقراء أمَّنت القاعدة التي شُيّدَ عليها تدريجيّاً فهمُه لدعوةِ المعلّم المسيحيّ .

تعبّر عن ذلك، إحدى تأمّلاتِه المكتوبة جيّداً، لأنَّها ترسمُ التّباينَ المؤثّر بين١ ـ الفقراء و٢ـ محبة الله المطلقة. هاتانِ الحقيقتان المتقاربتان -اللّتان يسمّيهما بعضُ المتخصّصينَ اليوم – " التأمّلَ المزدوج" أصبحتا حافزَ تكوينِ المدارسِ المسيحيّة. اكتشفَ دلاسال دعوتَهُ الشّخصية، هدفَ حياتِه، حينَ رأى أنّهُ ومن يرافقونَه يستطيعونَ ويتوجّبُ عليهِم أن يُحيوا اهتمامَ الله الراعي لأولئكَ الذينَ أُوكِلَت إليهِم تربيتُهُم. التأمّلُ التّالي الذي كتبَهُ للإخوةِ يُعطي وصفاً جيّداً ومختصراً للطّريقةِ التي كانَ ينظُرُ بها إلى تلكَ الخدمةِ وكيفَ كانَ يُعِدُّ دعوةَ الإخوةِ إشارةً إلى العنايةِ الإلهيّة التي كانَت موجّهةً إلى من كانوا أكثرَ حاجةً:

"احسَبوا أنَّها عادةٌ ساريةٌ على الحرفيّينَ والفقراء أن يتركوا أولادَهم يعيشونَ بحريّة كالمشرّدين، يهيمونَ هنا وهناك، فهُم لا يستطيعونَ استخدامَهُم في أيّ حرفةٍ وغيرَ مهتمّينَ بإرسالِهم إلى المدارس إمّا بسببِ الفقر الذي لم يكن يسمحُ لهم بإرضاء المعلّمين، وإمّا لاضطرارِهم للتخلّي عنهُم حينَ يُجبرونَ على العملِ خارجاً.

كانت النتائجُ مؤسفة: فاعتيادُ أولئكَ الأطفالِ المساكين على العيشِ بخمولٍ يُصعّبُ عليهِم الاعتياد على العمل.. أضف إلى ذلكَ معاشرَتَهُم رفاقَ السوء التي تعلّمُهُم ارتكابَ خطايا كثيرةً يصعُبُ عليهم بشدّة التخلّي عنها فيما بعد بسببِ كثرةِ العاداتِ السّيّئة التي اكتسبوها لفترةٍ طويلة.

إن الله صـالحٌ : وضـعَ حدّاً لذلكَ السّـلوك السّـيّئ بإنشـائه المدارسَ المسـيحيّة حيثُ التّعليمُ مجّانيّ، وهدفُه فقط لمجدِ الله وحيثُ يبقى الأولادُ منشـغلينَ طيلةَ النّهار فيتعلّمونَ القراءةَ والكتابةَ والتّنشـئة الدّينيّة، وهكذا يصبحونَ على أتمّ الاستعدادِ للعملِ حينَ يرغبُ أهلُهُم بتوظيفِهِم.

اشـكروا الله الذي أنعمَ عليكُم باسـتخدامِكُم لتوفيرِ تلكَ الفوائدَ الكبيرة للأولاد، وكونوا أمناءَ بالعملِ بدقّة من دونِ أيّ أجر؛ حتى تسـتطيعوا أن تقولوا معَ القدّيس بولس: "ما يعزّيني هو البشـارةُ بالإنجيل مجّانًا وبِدونِ أن يُكلّفَ ذلكَ شيئًا الذينَ يسمعونَني. " التّأمّل(١٩٤، ١)[٨].

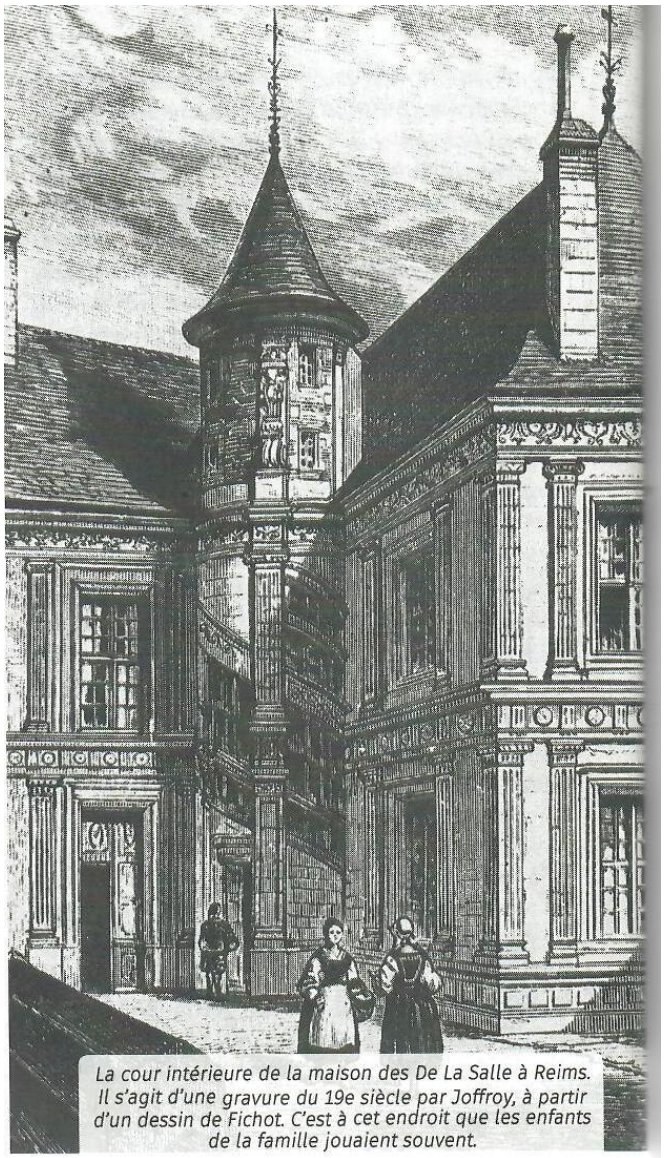

La cour intérieure de la maison des De La Salle à Reims. Il s'agit d'une gravure du 19e siècle par Joffroy, à partir d'un dessin de Fichot. C'est à cet endroit que les enfants de la famille jouaient souvent.

الفناء الدّاخليّ لبيت "دلاسال" في رينس Reims.
هي صورة من القرن ١٩ ل جوفروا Joffroy
مأخوذة عن رسم ل فيشو Fichot.
في هذا المكان كان أولاد العائلة غالبًا ما يلعبون.

السّنوات الأولى

كانَ "جان باتيسـت دلاسـال" الأوّلَ بينَ أحدَ عشـرَ ولداً وُلدوا "للويس دلاسـال" Louis De La Salle الذي كان قاضـيًا في محكمةِ رينس Reims المدنية، ونيكول مويت دو برويي Nicole Moët de Brouillet. اثنتانِ من أخَواتِه واثنانِ من إخوتِه وكانوا يصـغرونَهُ سـنًّا، توفّوا في سـنّ مبكّرة ولم يكُن ذلكَ نادرَ الحدوثِ في ذاكَ الزمان. كانَت مدينةُ رينس Reims بطرقاتِها الضـيّقة وكنائسِـها العديدة وكاتدرائيّتها الكبيرة بيتاً لعائلةٍ ممتدّةٍ من العمّاتِ والأعمامِ وأولادِهِم ومن الأجداد. منذُ ولادةِ "جان باتيسـت في ٣٠ نيسـان ١٦٥١ إلى حينِ انتقالِ العائلةِ بعدَ ثلاثة عشـر عامًا، كبُرَ في منزلٍ ضـخمٍ قريبٍ من وسـطِ مدينة الملوك والتّجار، وما زالَ قائماً حتى يومِنا هذا. كانَ الفناءُ وركنُ الطّريقِ المؤدّيانِ إلى المنزلِ العائليّ أماكنَ اللّعبِ لهُ ولأخوتِه وأخواتِه، أمّا المنزلُ بواجهتِهِ المتميّزة بِطرازِ النّهضـة، فقد كانَ المكانُ الذي تعلّمَ فيه بدايةً القراءةَ والكتابة بإشرافِ معلّمٍ خاصّ. كانت الكاتدرائيةُ القريبة بأجراسِها القديمة الرنّانةِ تُشرفُ على الأفقِ مثلما كانت عاداتُ التّقوى تُهيمِنُ على عائلتِه.

التأثيرات العائليّة

أمّنَ أهلُ "جان باتيسـت" لهُ التّربيةَ الدينيّة بعنايةٍ من خلالِ ارتباطِهِم الوثيقِ بالكاتدرائيةِ وبمختلفِ الرهبانيّات. في الوقتِ ذاتِه كانت عائلتُهُ المنتمية للمجتمعِ الرّاقي، تحافظُ على طريقةِ عيشٍ ملائمة لمركزِها، توظّفُ خدماً وتستقبلُ بانتظامٍ المدعوّين. يمكننا أن نفترضَ أنّ "جان باتيسـت" لو لم يكُن مدلّلًا بشـكلٍ مفرط، لَكانَ مع ذلك يعيشُ حياةً مرفّهة لا يعرفُ أيّاً من التّجاربِ القاسية التي كانَ يعيشُها الفقراءُ والمعوزون. خلالَ تلكَ السّنوات الأولى، أصـبحَ من المسـلّمِ بهِ أنَّ "جان باتيسـت" قد ورثَ عن والدِهِ نزاهَتَه وجدّيتَهُ المهنيّة، وأمّا عن والدتِه التي كانت قد تربَّت على ممارسةِ أفعالِ التقوى المسيحيّة الأكثرَ تطلّباً، فقد ورثَ الصفاتَ الإنسانيّة والفضائِل.

كاتدرائية رينس Reims التي كانت ما تزال في طور البناء خلال حياة جان باتيســـت على الرّغم أنّ أجزاء كثيرة منها كانت قد انتهت وكانت ما تزال قيد الاستعمال.
خدم المؤسّس فيها ككاهن قانونيّ طوال ١٦ سنة.
اللّوحة للرّسام "دومنيكو كاغليو" Dominico Quaglio (١٧٨٧- ١٨٣٧).

قد تكونُ صحيحةً أو غير صحيحةً، ولكنّ إحدى الرّواياتِ عن سنيّ "جان باتيست" الأولى تصوّرُهُ كشخصٍ كانَ يفضّـلُ الاستماعَ إلى جدّتِه وهي تقرأ سيرةَ القدّيسينَ على أن يشـاركَ العائلةَ في الحفلاتِ الموسيقيّة في الطّابقِ الارضيّ. نحنُ نعرفُ ميلَهُ للتقوى وشخصيّتَهُ الهادئة والمجتهدة.

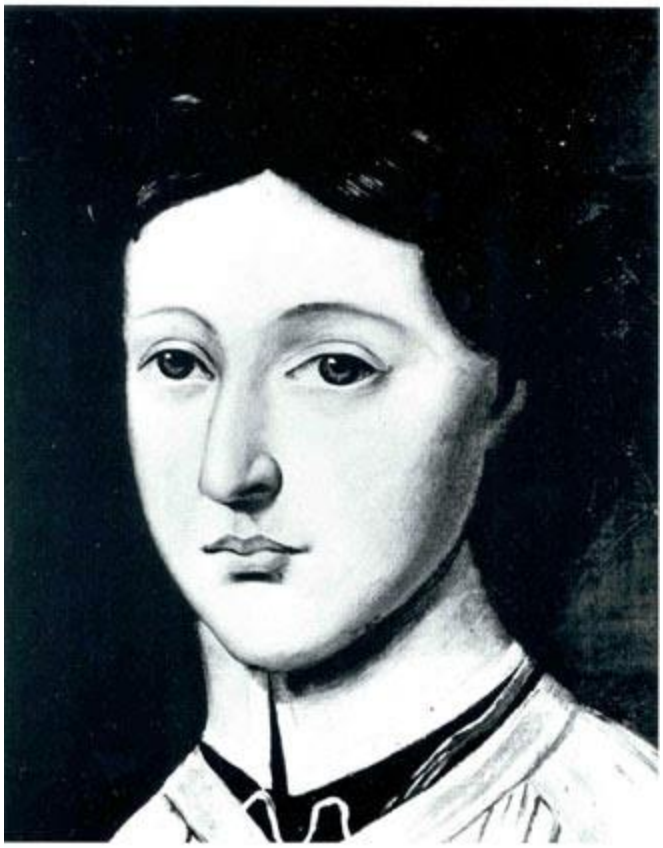

J.-B. DE LA SALLE JEUNE CHANOINE

رسم للقدّيس "جان باتيست دلاسال" حين كان كاهنًا قانونيًّا شابًّا في كاتدرائيّة رينس Reims؛ وهو في السادسة عشرة من عمره. هذا الرّسم موجود حاليًّا في منزل رينس Reims حيث أمضى طفولته.

التّربية

قد نتوقّعُ بشكلٍ عامّ أنَّ الابنَ الأكبر" للويس دلاسال" سيتبعُ آثارَ والدِهِ في مهنةِ الحقوق. ولكنَّ "جان باتيست" منذُ طفولتِه قد جذبتهُ حياةُ الكنيسة. بعدَ أربع سنينَ من التعلّمِ في المنزلِ اكتسبَ خلالَها القراءةَ وتهجيةَ الحروف انطلاقًا من النّصوصِ اللّاتينية، فَتمَّ تسجيلُهُ في تشرينَ الأول سنة ١٦٦١ في ثانويةِ بونزانفان Collège des Bons-Enfants وهي مدرسةٌ تابعةٌ لجامعةِ رينس Reims. قرابةَ نهايةِ السّنة الأولى في المدرسة وكانَ في سنّ العاشرة، قرّرَ "جان باتيست" أن يتطلّعَ رسميًّا إلى الكهنوت. إثرَ دعوةٍ من نسيبِه الأب "بيار دوزي" Père Pierre Dozet وكانَ مستشاراً في الجامعة، شاركَ في احتفالٍ يتضمّنُ قصَّ جزء صغيرٍ من شعرِه -وهي عبارةٌ عن دائرةٍ محلوقة في أعلى رأسِ المترهِّب - ليُظهرَ نيّتَه بأن يصبحَ كاهناً. فيما بعد صارَ يرتدي عباءَتهُ السّوداء ودامَ بِالتّفوّق في دروسِه الكلاسيكيّة.

بعد عدّةِ سنين، عام ١٦٦٦، وقد بلغَ "جان باتيست" ما يُقاربُ السّادسةَ عشر من عمرِه، منَّ بيار دوزي Pierre Dozet مجدّداً على نسيبِه الشّاب باستقالتِه من مركزِهِ ككاهنٍ قانونيّ في كاتدرائية رينس Reims (وهو مركز له مهامّ وامتيازات خاصّة مرتبطة بالكاتدرائيّة) وتحويلِ المركزِ إليه -وذلكَ كان أمرًا ممكنًا في

المجتمع آنذاك. فَأصبحَ المراهقُ منذُ ذلكَ الوقتِ فرداً من دائرةٍ مُغلقة لجماعةٍ من أكثر من ٦٠ إكليريكيًّا كانوا يترأسّونَ الاحتفالاتِ الدينيّة في كاتدرائيّةِ رينس Reims الشّهيرة، حيثُ كانَ ملوكُ فرنسا يُمسحون. كانَ ذلك يُمثّلُ " الجائزةَ الكبرى" اجتماعيًّا ودينيًّا ومادّيًّا. فقد كان المركزُ مزوّدًا بمخصّصاتٍ منتظمة، وملابس، ومكرُماتٍ وزيّاحاتٍ وأشكالٍ أُخَر متعدّدة من الامتيازات. وكانَ المركزُ يُلزمُهُ بِأشياء أُخَر مثلَ حضورِ الرُّتَب اليوميّة (وهي مجموعةٌ من الصّلواتِ العامّة التي تُقالُ في أوقاتٍ مختلفةٍ خلالَ النهار) والقدّاس اليوميّ، والمشاركة بالاجتماعاتِ المنتظِمَة في مجمعِ الكاتدرائيّة، وهي جماعةُ مستشاري رئيسِ الأساقفة. زِد على ذلكَ رفعةَ تلك المسؤوليّة الإضافيّة ومنافِعَها المادّية المهمّة، على أنَّ مركزاً بذلكَ الامتياز وضعَ "جان باتيست" على طريقِ الدوائرِ الكنسيّة السّريع.

بعد سنةٍ، أنهى دروسَهُ الكلاسيكيّة في مدرسةِ البونزانفان Collège des Bons-Enfants وبدأ بالدراسة التّقليديّة للفلسفة لمدّةِ سنتين. انتهَت دراستُه في ٩ تمّوز ١٦٦٩حينَ نجحَ بامتيازٍ في امتحانٍ شفهيّ طويل (باللاتينيّة) في علمِ المنطق وعلمِ الأخلاقِ والفلسفة .. في سنّ الثامنة عشر كانَ على أتمّ الاستعدادِ للدّخول إلى الجامعة مزوّدًا بشهادةٍ بدرجةِ أستاذ آداب والدّرجاتِ الصّغرى المؤهّلة للكهنوت والامتيازاتِ الخاصّة بصفتِه عضواً في مجمعِ كاتدرائيّةِ رينس Reims.

بعدَ أن أمضى "جان باتيست" سنةً في دراسةِ اللّاهوت في جامعةِ رينس Reims، استقرّ في إكليريكيةِ سان سولبيس Saint Sulpice في باريس على مسافةِ عدّةِ أيّامٍ من السّفر (١٥٠كلم) من مسقطِ رأسِه وطفولتِه. كانَ هدفُ تلكَ الإكليريكيّة تنشئةَ الكهنةِ المُلتزمينَ بحياةِ تقشّفٍ وانضباطٍ شخصيّ مع غيرةٍ على خلاصِ النفوسِ بِخاصّةٍ بينَ الفقراء. كانَت الحياةُ فيها صارمةً، مُثقلةً بالعملِ والصّلاةِ والصّمت.

رسم لنيكول مويت دو بروبي Nicole Moët de Brouillet والدة دلاسال.
توفيت في سنّ ال٣٩ وقد أنجبت ١١ ولداً؛ سبعة منهم بقوا على قيد الحياة حتى سنّ الرشد.

في الواقِع كانَت الرّتابةُ العامّةُ في الإكليريكيّة – صـــمتٌ وتأمّلٌ وقراءةٌ روحيّة وقراءةٌ خلالَ الطّعام، فحصُ ضـميرٍ يوميّ، عباداتٌ متعدّدة وانفتاحٌ على المرشِـد الروحيّ، إن لم نُسَـمِّ إلّا بعضًـا منها -تشـبهُ بشـكلٍ لافت الوتيرةَ التي أدخلَها "جان باتيست" فيما بعد في تنشئةِ معلّميه، الإخوة.

المسؤوليّات العائليّة

معَ ذلكَ، سـرعانَ ما انتهَت توقّعاتُهُ بعيشِ حياةِ طالبٍ إكليريكيّ عاديّ. توفيت والدةُ جان باتيسـت في الأسـابيعِ الأخيرة من سنتِهِ الأولى في باريس، ثمّ ماتَ والدُهُ بعدَها بأقلّ من تسـعةِ أشـهر. لم يتمكّن من العودةِ في الوقتِ المحدَّد للجَنازتين؛ فَحينَ وصلَهُ الخبرُ كانَ الدّفنُ قد تمَّ. عادَ إلى رينس Reims لأنّهُ كبيرُ العائلة ومنفّذُ وصيّة أبيه فيما يختصُّ بالتّركَة، ليهتمَّ بإخوتِه وأخَواتِه وأعمالِ العائلة. عندَ عودتِه إلى رينس Reims اتَّخَذَ مُرشـــداً روحيّاً هوَ الأبُ نيقولا رولان Nicolas Roland وهوَ كاهنٌ قانونيّ في كاتدرائيةِ رينس Reims وكانَ يكبرُهُ بثمانية أعوام. وبِحسبِ نصائح رولان Roland أنهى جان باتيست دروسَهُ الإكليريكيّة في جامعةِ رينس Reims وبعدَ شهرينِ فقط على موتِ والدِه رُسِمَ شدياقاً وهيَ إحدى الرُّتَبِ قبلَ رُتبةِ الكهنوت. بالرّغمِ من كلّ النّكباتِ كانَ مستمرًّا بالطريقِ الذي أودعَهُ الله في قلبِه.

ولكنَّ العائلة لن تبقى مجتمعةً كما من ذي قبل، فَبعدَ أسـابيعَ قليلةٍ على رسـامتِه، ذهبَت شـقيقتُه الكبرى برفقة أخيهِ الذي يصـــغرُهُ بســـنتين للعيشِ مع جدّتِه لوالدتِه. أمّا شـــقيقتُه الأخرى فقد التحقت براهباتِ القدّيس أغسـطينوس Saint -Augustin وهي جمعيّةٌ دينيّةٌ نصـفُ تأمّلية. وبقيَ "جان باتيسـت" الشّـابُ البالغ من العمرِ ٢١ عامًا يحملُ مسؤوليّةَ أخوتِهِ الثّلاثة البالغينَ من العمرِ ثلاثة عشر عامًا، وثمانيةَ أعوام، وستةَ أعوام.

تبعَ ذلكَ زمنُ دراسـةٍ ومسـؤوليّات عائليّة فقد كانَ "جان باتيسـت" يسـهرُ على تربيةِ إخوتِه فيما كانَ يُتابِعُ دراستَهُ الخاصّة.

الرّسامة الكهنوتيّة

بعد ستّ سنوات، وفي عام ١٦٧٨، حصلَ "جان باتيست" على إجازةٍ في اللّاهوت المقدّس وفي نهايةِ الصوم، يومَ سبتِ النّور في ٩ نيسان ١٦٧٨، رسمَهُ رئيسُ أساقفةِ رينس Reims شارل موريس لو تليي Charles-Maurice Le Tellier كاهناً عن عمرٍ يُناهزُ ٢٦ عامًا، حينَها بلغَ أخيراً الهدفَ الذي كانَ قد وضـعَهُ لنفسِـه منذُ ما يقاربُ ١٦ ســـنة. حقّقَ ذلكَ في ظروفٍ لم يكن ليتوقّعَها إطلاقاً، بيدَ أنّهُ بقيَ مثابِراً خلالَها، إذ لم يكُن يدري أنّ مغامرةَ حياتِه أوشكَت أن تبدأ.

كانَ جان باتيسـت الذي أصـبحَ يُدعى الأب دلاســال، يرى بِدون شـكّ مهنتَهُ كإكليريكيّ محترم في أبرشـيةِ رينس Reims لها هامشُ نجاح. ولكنَّ ذلكَ لن يكونَ سـهلَ التوقّع. فخلالَ أقلّ من ثلاثةِ أسـابيع على رسـامتِه الكهنوتية، توفيَّ فجأةً مرشـــدُه الروحيّ وصـــديقُه نيقولا رولان Nicolas Roland عن عمرِ الخامســـة والثلاثين. كانَ دلاسـال أحدَ الموكّلينَ بتنفيذِ الوصـيّة. كُلّف الكاهنُ المرتسمُ حديثاً بِمهامّ متعدّدة من بينِها: إدارةُ مفاوضـــاتِ رولان Roland للحصـــولِ على براءةِ ملكيّة لصـــالحِ راهبات الطّفل يســـوع المقدّس Saint-Enfant-Jésus وهي جمعيّةٌ دينيّة كانَ رولان Roland قد أسّسها لتربيةِ البناتِ الفقيرات وتأمينِ كلّ الدّعم الممكن لهنّ. في سـنةٍ واحدة، حقّقَ دلاســال هذا فعلًا، وذلكَ بحصـولِه على دعمِ رئيسِ الأســاقفة وأشـخاصٍ آخرين لتلك الجمعيّة الجديدة، وبمعرفتِه من خلالِ ذلك السّـياق الرّعاةَ والرسـميّينَ والشـخصـيات البارزة في رينس Reims التي كانت مفيدةً لتأسيسِ ذلك المشروع التربويّ الجديد في المدينة التي وُلدَ فيها.

دلاسال يلتقي بأدريان نييل Adrien Nyel للمرّة الأولى على باب دير راهبات الطفل يسوع Soeurs de l'Enfant-Jésus في رينس Reims.
الرّسم مأخوذ من كتاب حياة المؤسّس ل غافو La Vie du Fondateur par Gaveau
سنة١٨٨٦ من خلال رسم ل جرليي Gerlier.

تدخّلَ "دلاسال" ايضاً ناصحاً الرّاهبات حولَ المسائِل الزّمنية وتأمينِ حاجاتِهنّ الرّوحية. فأصبحَت حياتُه زاخرةً يوميّاً بخمس أو ست ساعات من الصّلوات، نتيجةَ أنّهُ كاهنٌ قانونيّ في الكاتدرائيّة، وبالخدمةِ الكهنوتيّة بإقامة الذّبيحة الإلهيّة اليوميّة وسماعِ الاعترافات، وكذلكَ بدعمِ الرّاهباتِ بجميعِ الطّرق التي ترغبنَ بها أو تطلبنَها، وباستضافةِ الإكليريكيّينَ الزّائرينَ أو المعوزينَ في المنزل العائليّ وبالإشرافِ على المسائلِ الحياتيّة والماليّة في العائلة، بعدها التقى أدريان نييل Adrien Nyel.

حينَ يتعلّقُ الأمر بي، لا أحبُّ القيام بالخطوة الأولى في مشروعٍ ما. أدعُ للعناية الإلهية أمرَ القيام بالخطوة الأولى ثمّ أكونُ راضياً. ـ الرسالة ٢٤

لا تُهمل الفرصَ التي تستطيعُ إيجادَها ولكن لا تستعجل. ـ الرسالة٢٤ .

يجبُ عليك ألّا تتركَ نفسَك للقلق...سلّم امرَك لله كما لأبيكَ الصّالح. تضرّع اليهِ كي يسندك لاقتناعِك انّكَ لا تستطيعُ القيامَ بذلك بنفسِك. ـ الرسالة ١٠١ .

أدريان نييل Adrien Nyel

في البداية شيءٌ من التاريخ. كانت جمعيّةُ الرّاهبات المعلّمات التي أسّسها نيقولا رولان Nicolas Roland على مثالِ مؤسّسة الأب نيقولا باري Nicolas Barré النّاجحة مع راهباتِه في روان على مسافة ٢٢٥ كم إلى غربِ رينس Reims.

كانت تلكَ المؤسّسة مدعومةً بفضلِ كرمِ مدام مايفير Madame Maillefer وهي نسيبةٌ لعائلةِ دلاسال. أدريان نييل Adrien Nyel كان مديراً لمأوى روان العامّ Hospice Général de Rouen (وهو مكانٌ يؤمّنُ مختلفَ الخدماتِ الاجتماعيّة لفقراءِ المنطقة بما فيها التّعليم) وكان يُطوّعُ بمساعدةٍ من السيّد باري M. Barré شبّاناً لتعليمِ الصّبيانِ الفقراء في روان Rouen . في شهرِ آذار من سنة ١٦٧٩حضرَ أدريان نييل Adrien Nyel إلى بابِ ديرِ راهباتِ الطّفلِ يسوع القدّوس Saint-Enfant-Jésus في رينس Reims ومعهُ رسالةٌ من السّيّدة مايفير Madame Maillefer كي تتأمّنَ تربيةُ الصّبيانِ الفقراء في مسقطِ رأسِها رينس Reims، وقد كانت السيّدة مايفير Madame Maillefer كلّفتهُ بتلكَ المهمّة. شاءت العنايةُ أن يصلَ دلاسال في الوقتِ نفسِه مع نييل Nyel.

في الدّاخلِ تعارفا وبعدَ بضعةِ أحاديث، دعا دلاسال نييل Nyel للبقاءِ عندَه لِوضعِ استراتيجية لتنفيذِ ذلكَ المشروعِ التربويّ الجديد. بتدبيرٍ من العنايةِ الإلهية كانَ دلاسال الشّخصَ المناسب في المكانِ والزمان المُناسبين بالنسبةِ إلى أدريان نييل Adrien Nyel. وفي الأسابيعِ التي تَلَت استشاروا إكليريكيّينَ ذوي خبرةٍ وقساوسةً محلّيين وأشخاصاً كانَ دلاسال قد خَبِرهُم بفضلِ عملِه السّابق لصالحِ راهبات رولان .Roland أخيراً تقرّرَ أن تبقى المدرسة رعائيّةً وفقط تحتَ إشرافِ القسّيس المحلّيّ بسببِ الحدودِ القانونيّة التي كانت تتحكّمُ بالتّربية في تلكَ الحقبة. ذلك سيثيرُ اعتراضاتٍ أقلَّ من قِبَلِ مُختلفِ جمعيّاتِ التّعاضدِ والهيئات في المدينةِ التي كانَ من الُممكِن أن تعترِضَ على أن تُنافسَها مدرسةٌ أخرى من ناحيةِ التّلاميذ كما من ناحيةِ الأموال.

هكذا بعدَ مرورِ أسابيعَ قليلة، أُنشِئَت مدرسةٌ في رعيّةِ سان موريس Saint Maurice المحلّية وكانَ الكاهن يتفانى في خدمةِ الرّعيّة ويدافعُ بحزمٍ عن حقوقِها في كلّ ما كانَ يقومُ به بما يخصُّها. ظنَّ دلاسال أنَّ تلكَ ستكونُ نهايةَ التزامِه في المشروع. إلاّ أنَّ أرملةً ثريّة أخرى اقترحَت إنشاءَ مدرسةٍ مشابهة لرعيّتِها في رينس Reims ولكن شريطةَ أن يكونَ دلاسال جزءاً من العقد، ويعدُ بتوفيرِ بعض الإشراف عليها. قدّمَ دلاسال على مضضٍ مساعدتَهُ. وقد أصبحَ لدى نييل Nyel الآنَ معلّمينَ لمدرستينِ في سان موريس Saint-Maurice ممّا شكّلَ امتحاناً لعزيمةِ الكاهن كما بالنسبةِ للموارِد. وجدَ دلاسال حلّاً للمشكلة مرّةً جديدة إذ ساهمَ في دفعِ نفقاتِ المعلّمين. ولكن في شهرِ كانون الأول لم تعُد حتى تلكَ المساعدة الماليّة كافية. قرّرَ دلاسال عندئذٍ أنّهُ من الأفضل استئجارُ منزلٍ بقربِ منزلِه ودعا نييلNyel ومعلّميه إلى الإقامةِ فيه. بفضلِ حماسة نييل Nyel سرعانَ ما فتحت الرعيّة التي كانت يتواجدُ فيها ذلكَ المنزل الخاصّ، ومدرستها أيضاً. يبدو أنّ السّيّد نييل Nyel كان موهوباً في إنشاء المدارس ولكنّهُ لم يكُن كذلكَ في مراقبتِها أو إلهامِها. فمعظمُ المعلّمين الذينَ وظّفهُم كانوا قليلي التّنشئة والاشراف.

العيش مع المعلّمين

شعرَ دلاسال بالمسؤوليّة وقرّرَ بموافقة إخوتِه الثّلاثة الذين كانوا ما زالوا يعيشونَ معه، أنَّ أفضلَ ما يمكن فعلَه هو أن ينضمَّ اليهِ المعلّمون لتناولِ الطّعام اليوميّ في منزلِه القريب، وذلكَ ابتداءً من عيدِ الفصح سنةَ ١٦٨٠. ولَسوفَ يستطيعُ بتلكَ الطّريقة أن يعملَ معهُم بشكلٍ وثيق ليجعلَ منهُم معلّمينَ أفضل، وربما أيضاً لإصلاحِ مهاراتِهم فيما يختصُّ بالمحادثة وتصرّفاتِهم على المائدة. لقد أعطى وعداً للأشخاص الذين أمّنوا التمويلَ لتلكَ المدارس أن يشرفَ على الاستثمار، وتلكَ كانت الوسيلةُ الوحيدة للإيفاءِ بوعدِه. كانَ التزامُه ما يزالُ سطحيّاً ولكنَّ إحساسَهُ بالمسؤوليّة قادَهُ إلى محاولة " السّهر على أن يُنجزوا واجباتهم بطريقةٍ متديّنة ومُتقنة". في مجرى الأحداث، في الوقتِ عينِه الذي فيهِ كانَ دلاسال يدعمُ شخصيّاً وبشكلٍ مباشر عملَ أولئك "المعلّمين" الذينَ بالكادِ كانوا يعرفونَ الأبجديّة، كانَ هوَ يُنهي الدكتوراه في اللّاهوت في جامعةِ رينس Reims.

في السّنةِ التّالية كانتِ المدارسُ الثّلاث، التي قد أصابَت شيئًا من النّجاحِ في البداية، تستمرُّ بالمعاناةِ من غيابِ السيّد نييل Nyel المتكرّر، ومن انعدامِ كلّ تنظيمٍ أو طرقٍ مدرسيّة موحّدة وكذلكَ من الحاجةِ المتزايدة للنّظامِ عندَ التّلاميذ كما عندَ المعلّمين. مرّةً جديدة أخذَ دلاسال مبادرةً فنظّمَ رياضةً روحيّة للمعلّمين في منزلِه خلالَ أسبوعِ الآلام سنة ١٦٨١ مزوّداً إيّاهُم برؤيا روحيّة وطابعاً فيهِم حسَّ النّظام الشّخصيّ. كانَ نييل Nyel غائباً يتفاوضُ لفتحِ مدرسةٍ أخرى خارجَ رينس Reims. ولكنّه حينَ عاد، أصبحَ التّغييرُ عندَ المعلّمين واضحاً لديه وفطنَ إلى أنَّ لدلاسال الفتيّ مستقبلاً حقيقيّاً في خدمةِ التّعليم. أدركَ دلاسال تدريجيّاً أنّهُ بدونِ مساهمتِه الشخصيّة سوفَ تعودُ الأمورُ سريعاً إلى وضعِها السّابق. استشارَ نيقولا باري Nicolas Barré في باريس وهوَ كانَ يعرفُ نيقولا رولان Nicolas Roland وأدريان نييل Adrien Nyel وقد كانَ ملتزماً بفعاليّة بقضيّةِ تربيةِ الفقراء. فطِنَ الكاهنُ المحترم بسرعةٍ للوضع، وهوَ الذي كانَ يعرفُ دلاسال جيّداً، وأوعزَ اليه من دونِ مواربة أن يأتيَ بالمعلّمينَ إلى منزلِه فيعيشوا معهُ دائماً. كانت تلكَ نصيحةً حاسمةً من وجهاتِ نظرٍ مختلفة. ذلكَ إجراءٌ سوفَ تكونُ لهُ تبعاتٌ واضحة على عائلتِه (فقد كان حارساً لإخوتِه الصّغار) ، وعلى موقعِه في المجتمع وفي الكنيسة (ما كان اختلاط الطّبقات الاجتماعيّة يتمّ بتلك الطريقة) وكذلك على مشاريعِه المستقبليّة (أيّ تفكير بترقيةٍ كنسيةٍ أصبحَ عليهِ على الأقلّ تجميدُه) . كان ذلك سيشكّل قراراً حاسماً في حياته. صلّى بعمق على تلكَ النيّة واستشارَ عديدين. في نهايةِ المطاف اقتنعَ دلاسال أنَّ تلكَ إرادة الله له، وحين اقتنعَ تقدّمَ بِدون تردّد.

في ٢٤ حزيران من سنة١٦٨١، حينَ انتهى عقدُ إيجارِ المنزل، انتقلَ أولئكَ المعلّمونَ البسطاء الذينَ كانوا ينتمونَ إلى طبقةٍ اجتماعيّة بعيدةٍ جدّاً عن دلاسال، وأقاموا في المنزلِ الذي كانَ يعيشُ فيهِ مع عائلتِه مُذ كانَ في الثالثة عشرة من عمرِه، بصفتِه الأكبرَ في العائلة، لم يكُن باستطاعةِ إخوتِه أو عائلتِه الموسّعة فعلُ شيءٍ مهمّ لمقاومةِ القرارِ الذي صمّمَ عليه، على الرّغمِ من محاولتِهم الأكيدة. هكذا تصفُ إحدى نسيباتِه التي كانت حاضرةً المشهد: " بما أنّ دلاسال كانَ الأكبر سنّاً، كانت العائلةُ تجتمعُ أحيانًا عندَهُ لتناولِ الطّعام، وللحفاظِ على أواصرِ الوحدة فيما بينَهُم. كانَ رجلُ الله الذي يجلسُ أوّلاً، يحتاجُ إلى التّسلّحِ بكلّ الصّبرِ ليحتملَ كلَّ ما كانت عائلتُه تقولُهُ خلالَ تلكَ الموائِد، عن الجنونِ الذي كانَ يرتكِبُهُ بالتزامِه القيامَ بتنشئةِ معلّمينَ للمدارس على حسابِ عائلتِه.... حينَ بدأوا بطرحِ الموضوعِ أمامَه، بقيَ مشبوكَ اليدين بهدوء، يستمعُ بأناةٍ إلى الأسباب التي كانوا يتعلّلونَ بها من جهة ومن جهةٍ أخرى لحملِه على العدولِ عن مشروعِه فلم يُجِب بكلمةٍ واحدة..."[١٠]

يبدو أنَّ دلاســـال كانَ بإمكانِه أن يُظهرَ عناداً في ذلكَ النّوعِ من القرارات. حينَ تبيّنَ لهُم بوضـــوح أنّهُ بالرُّغمِ من تدخّلِهِم واعتراضـــاتِهم القويّة لن يُغيّرَ رأيَه، تقرّرَ أن يعيشَ أحدُ إخوتِه الأصـــغر ســـنّاً مع أختِه الكبرى المتزوّجة، وأمّا الأصـغرُ سنًّا فيلتحق بمدرسـةٍ داخليّة. أمّا الأخُ الآخر لدلاسـال، جان ـــ لويس ،١٨ عامًا، الذي سـيصـبحُ فيما بعد كاهناً، فقد قرّرَ أن يبقى في المنزل مع أخيهِ والمعلّمين. أمّا صـهرُه جان مايفر Jean Maillefer فقد لاحقَهُ أمام العدالةِ باسمِ العائلة بسببِ المنزِل الذي كانَ جزءاً من ميراثِهم المشترك؛ وقد انتهى بهِ الأمرُ إلى ربحِ الدّعوى ممّا جعلَ الاتّفاقَ الجديد في المنزلِ العائليّ مؤقّتاً.

لا تتكلّموا إلاّ بلطف واصُمتوا حينَ تخافوا أن تنطِقوا بما سوى ذلك. التأمل ٦٥، ٢

تأهيل الأساتذة

جَهِدَ دلاســـال في تثقيفِ جماعةِ المعلّمين تلك ببطء وتكوينِ تفكيرٍ وهدفٍ مشـــتركين عندهم وذلكَ من خلال اعتمادِ دوامٍ موحّد للمنزل والمدرسة وبممارسةِ تمارينَ دينيّة وممارساتٍ تقشّفيّة مشتركة وأيضاً بإدراجِ طرقٍ تربويّة عمليّة ومترابطة. بحســبِ مايفر Maillefer نسـيبه وأحدُ أوائلِ كاتبي سـيرتِه، كانَ دلاســال " يكتفي بإمساكِ يدِ المعلّمين إن صحَّ القول، و ذلكَ كي يسمح لهُم أن يروا أفضلَ طريقةٍ لاتّباعِها، انطلاقاً من تجربتِه الشّخصيّة وحثِّه لهم بِصفتِه قدوةً لهم...في حين كانَ أدريان نييل Adrien Nyel يمضـي وقتَهُ بالعمل على إنشـــاءِ مدارسَ في المدن خارجاً عن مدينةِ رينس Reims كانَ دلاســـال يديرُ معلّمي ومدارسَ رينس Reims. كانَ المعلّمونَ ينطلقونَ كلَّ صـــباحٍ وكلّ فترةٍ بعد الظّهر من المنزلِ الرّئيس في المدينة للاهتمامِ بالمدارس الثّلاث، ويتشـــاركونَ خُبُراتَهُم عند العودة ويتناقشـــونَ عن النجاح أو الفشـل مع دلاســال الذي كانَ يسـتمعُ إليهِم ويُغدِقُ عليهِم كلَّ نصـيحةٍ مُمكِنة. كانت العلاقةُ بين دلاسـال وأدريان نييل Adrien Nyel الذي كانَ يكبُرُهُ ب ٣٨سنة، تبدو ودّية ومتضامنة بشكلٍ عامّ، ولكن من دون أن تكون فعلاً متكاملة. كانَ لنييل Nyelشغفٌ ومقدرةٌ على إنشاء المدارس. اكتسبَ "دلاسال" شغفَ إدارتِها وترسيخِها كمدارسَ مسيحيّة مع أساتذةٍ مُتفانينَ يُحفّزُهُم الدّين. في نهايةِ الأشهرِ السّتة من الحياةِ المشتركة في المنزل مع "دلاسال"، رحلَ نييل Nyel لتأسيس مدرسةٍ أخرى في مدينةِ ريتيل Rethel المجاورة ـــ وهوَ مجهودٌ كانَ "دلاسال" قد تولّى أمرَ ترتيبِهِ. طيلةَ أربع سـنوات، لم يَعُد نييل Nyel إلى رينس Reims فقد كانَ يؤسّـسُ مدارسَ أُخَر معَ المعلّمين الذينَ كانَ يوظّفُهُم. بعضُ تلكَ المدارس كسـبَت أيضـاً معلّمينَ تَرَبّوا على يدِ دلاسـال في رينسReims . كانَ التّباين مُدهشًـــا بينَ هؤلاء المعلّمين وموظّفي نييل Nyel في ما يتعلّق بالخشـــوع والنّظام بالنســـبةِ إلى أولئك الذينَ كانوا يدعمونَ المدارِس الجديدة. أصـــبحَ واضـــحاً لكلٍّ من دلاســـال وادريان نييلAdrien Nyel أنّ مواهبَهما كانت في اتجاهاتٍ مختلفة.

التّغيير من معلّم إلى "أخ"

كان التزام "دلاســـال" يزدادُ بعمقٍ أكبر عندَ كلِّ منعطف. فَفي حزيران ســـنة ١٦٨٢، بعدَ ســـنةٍ من انتقال المعلّمين للعيشِ معه، اضـطّرَ دلاسـال إلى مغادرةِ المنزل الذي خسـرَهُ بالمزادِ العلنيّ بعد الدعوى التي أقامَها صهرُه. لم يمنعهُ ذلك من متابعةِ العمل الجيّد الذي كانَ قد شَرَعَ فيه. استقرّ المعلّمونَ مع أخيه جان ـ لويس في منزلٍ مزدوج استأجروه في شـارع نوف Rue Neuve في حيّ أكثرَ فقراً طبعاً في رينس Reims. ولَسوف يُعرف المنزلُ الذي انتقلوا اليه فيما بعد باسـم: " مهد المؤسّـســة"، لأنّه كان أول مكان مسـتقلّ لهذه الحركة؛ وهناكَ مدرسةٌ لساليّة ما زالَت حتى يومِنا هذا موجودة هناك. بالإضافة إلى تغييرِ المنزل، غيّرَ دلاسال أيضاً الوســطَ الاجتماعيّ، فبدلاً من الغرفِ الواســعة والمرتّبة، أصــبحَت الأماكنُ ضــيّقة، واســتعاضَ عنِ الخدم، والأحاديثِ المنمّقة، والرّوائحِ الذّكيّة والطّعامِ الفاخر، بالأحاديثِ البســـيطة والرّوائحِ غير المحدّدة والطّعام العاديّ. في ذلكَ المكانِ الجديد دُعي الرجالُ الذين كانوا برفقةِ دلاسال " إخوة" عوضـاً عن " معلّمي المدارس الذينَ يعيشونَ مع الكاهن دلاسال".

في ذلكَ الموقع الأوّل كانَ "دلاســـال" رئيسَ الجماعة ومديرَهُم الروحيّ وذلكَ بناءً على طلبِهِم. لا شـــيءَ فُرضَ بالأمر، وقد كانَ ذلكَ الأمرُ اسـتثناءً بالنسـبة إلى معظمِ الجمعيّاتِ الدّينيّة في تلكَ الحقبة. على العكس،" مدحَهُم إذ جعلَهُم يشـعرونَ بالرّضـى لأنّهُم ابتدَعوا رؤيةً خاصّـةً بهم، ومشـاريعَ شـخصـيّة وحوّلوها إلى واقع.. وبتلكَ الطّريقة أصـبحوا حقًّا المشـرّعينَ لأنفُسِـهِم."[١٢] بعدَ انقضـاءِ سـتة أشـهر في الموضـعِ الجديد، ما لبثَت الدّهشـةُ أن تبدّدَت فغادرَ جميعُ أعضـاءِ الجماعةِ الأولى باستثناءِ بعضـهم. لم يُبدِ دلاسال اعتراضًـا واحدًا على ذلكَ لأنهُ قد صــارَ واضــحاً لديه أنَّهُم غير ملائمينَ للتّعليم ولا للحياةِ الجماعيّة. وسـرعانَ ما قدِمَ موظّفونَ جُدُد كانوا مستعدّينَ بشكلٍ أفضلَ للحياة التي كانَ دلاسال يعرضُها عليهِم.

بالرّغم من وجودِ أولئكَ الموظّفين الجُدُد ونجاحِ المدارس كانَ التزام "دلاسـال" موضـعَ تسـاؤلٍ على صـعيدٍ شـخصـيّ جدًّا. فبالرّغمِ من أنَّ المدارسَ والحياة الجماعيّة للإخوة أصـبحَت أكثرَ اسـتقراراً، تجرّأ الإخوةُ بما يكفي ليسائِلوهُ عن حياتِه، وهي أساسًا منحدرة من الطّبقة الارستقراطية إزاءَ حياتهِم غير المستقرّة في العمق. لم يكُن بالإمكانِ تلافي ظهورِ الظّروف التي أخرجَت التّبايُنَ إلى العلن.

التّنازل عن الثّروة

في أحدِ الأيام وبعدَ أن أصـــبحَ فقرُ الحياة في الجماعة مُدقِعًا قرّرَ أن يُلهِمَهُم من خلالِ طرحٍ يحثُّهُم على الثّقة بالعنايةِ الإلهيّة. لقد نقلَ أحدُ كاتبي ســـيرتِه هذا الطّرح وقد كانَ يعرفهُ جيّدًا وقد عاشَ معه. النصُّ مأخوذٌ على الأرجح من " ذاكرةِ البدايات" وهي وثيقةٌ كانَ "دلاسـال" قد كتبَها بشكلٍ خاصّ سنة ١٦٩٤ إنّما ضـاعَ خلالَ الثّورة الفرنسيّة. إليكُم ما كتبَهُ:

"أيّها الرّجال القليلو الإيمان، أنُتم تفرضونَ بقلّة ثقتِكُم حدوداً لصلاحٍ لا حدودَ له. بالطّبع إن كانَ لامتناهٍ وجامع ودائم (وأنتم لا شكَّ عندكُم بهذا) فهو سيعتني دائمًا بكُم ولا يخيّبُكُم أبدًا. أنتم تبحثونَ عن الضّمانة، أليسَت لكُم من خلال الإنجيل؟ ... أنظروا إلى زنابقِ الحقل، هو المســيحُ نفسُــه من يدعوكُم إلى النّظر إليه، وأعشــابِ الحقول، وتأمّلوا مندهشينَ كيف أنّ الله أفاضَ بوفرةٍ عليهم كلَّ زينة وجمال. لا شيءَ ينقصُهُم وسليمانُ في عزّ مجدِه لم يكُن لباسُــه أبهى. افتحوا أعينَكُم على العصــافير التي تطيرُ في الفضــاء، أو على الحيواناتِ الأصــغر

التي تزحفُ على الأرض، لا تحتاجُ إلى ما هو ضـــروريّ، فالله يهتمُّ باحتياجاتِها...أحيوا إذًا ثقتَكُم بالصّـــلاح اللّامتناهي ومجِّدوه بتخلّيكُم عن الاهتمام بذواتِكُم. لا تضـطّربوا على الحاضـر، ولا تقلقوا على المسـتقبل ولا تهتمّوا الّا للّحظة التي تعيشـونَها فلا تُثقلوا اليوم الذي يعبر بحسـاباتِ اليوم التّالي. ما قد ينقصُـكُم في المسـاء، سيأتيكُم في اليوم التّالي إن عرفتُم أن تضَعوا رجاءَكم في الله. [١٣]

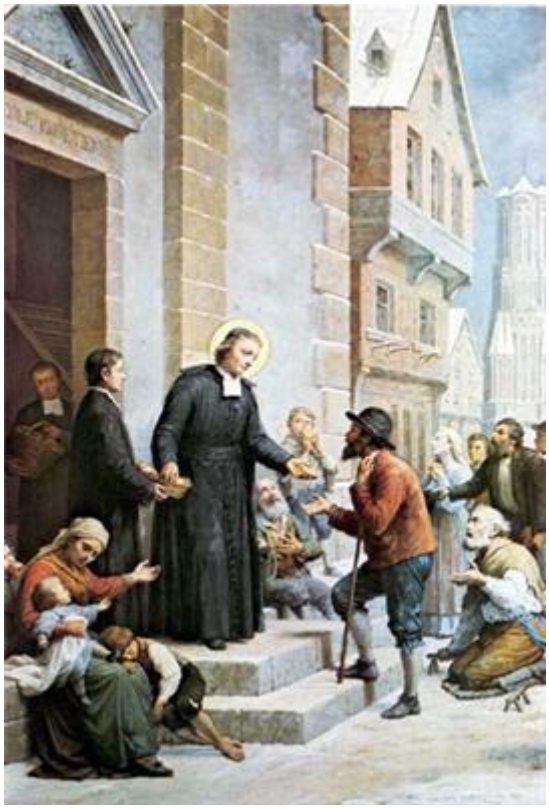

لوحة لجيوفاني غاغلياردي Giovanni Gagliardi (١٨٦٠ـ ١٩٠٨) تُظهر دلاسال وهو يوزّع الخبز على الفقراء خلال الشّتاء القاسي سنة ١٦٨٣. ١٦٨٤ .
بهذه الطّريقة تصرّف بالجزء العائد له من ثروة العائلة ليصبح فقيراً كما كان إخوته.

قد تكونُ الثّقة بالله موضـــوعًا شـــديدَ الأهمّية والتّكرار في أحاديثِ الأب دلاســـال معهُم، ولكنَّ مســـألة الثّروة العائليّة والمركز الاجتماعيّ تؤثّرُ بشـــكلٍ أكثرَ إقناعاً. لم تغِب ردّةُ الفعلِ عن المعلّمين. كانَ جوابُهُم مباشـــرًا وصريحًا:" سهلٌ عليكَ أن تتكلّم".

قالوا له: أنتَ تتحدّث براحةٍ ولكن لا شـيءَ ينقصُـك. أنتَ مزوّدٌ بحقٍّ كنسـيّ وبأملاكٍ عائدة له وذلكَ يشـكّل شـبكةَ أمّانٍ لكَ تحميكَ من العوز. إذا انهارَت مؤسّسـتُنا أنتَ تبقى واقفاً على قدميكَ وانهيارُ حالِنا لا يؤثّرُ على وضـعِك. نحنُ أناسٌ بلا أملاك، بلا عائدات وحتى بدونِ مهنة: إلى أينَ نذهبُ وماذا نفعل إذا سـقطَت المدارس أو كنّا محطَّ اشمئزاز؟ سيكونُ الفقرُ حينَها نصيبَنا الأوحد والاستجداءُ سبيلَنا الوحيد للتّخفيفِ من بؤسنا.[١٤]

تلكَ كلماتٌ تصيبُ الهدفَ مباشرة. ولكن بدلاً من أن يجيبُهُم كما كانَ معظمُ الناس ليفعلوا أمامَ ذلكَ التّحدّي - " أنظروا إلى كلِّ ما وهبتُكُم إيّاه وكم من الوقت والمجهود أنفقتُ في هذه القضيّة" - إنّما كتبَ بالأحرى:" لقد أُرغمتُ على الصّـمت. طالما أنّني لسـتُ فقيراً، ليسَ لي الحقُّ بالكلام بلغةِ الكمال." [١٥] بلغَ حينئذٍ ارتدادُ حياتِه الذي كانَ قد بدأ في لقائِه بطريق الصّـــدفة مع أدريان نييل Adrien Nyel أبعاداً أكثرَ عمقاً لم تكن محطّ تساؤلٍ في حياته. استمعَ "دلاسال" وأجابَ بالطّريقة نفسِها التي اعتمدَها في كلّ أوقاتِ تقريرِ المصير: البحثُ عن إرادة الله من خلالِ الصّلاة والصّوم والاستشارة والتأمّل والانفتاح على كلّ المحيطينَ به وبالعملِ الحازم والمتبصّر..

كان جوابُه حازمًا كَطباعهِ التي كانت تتطوّر. في آب سـنة ١٦٨٣، اسـتقالَ من منصـبِه المميّز والمُربح في كاتدرائية رينس Reims. حين كتبَ لنفسـه الأسباب التي قام بهذا العمل لأجلها، كانت آخر النّقاط العشر التي عدّدَها تميّزُ مقاربَتهُ لإرادة الله": بما أنّني لم أعُد أحسُّ بالانجذابِ نحو دعوةِ الكهنوت القانونيّ chanoine يبدو لي أنّ تلكَ الدعوة الخاصّـة قد فارقتني قبلَ ان أتخلّى عنها بوقتٍ غير قصـير. لم يعُد هذا الوضـع مناسـباً لي. فبالرّغمِ من أنّني قد ولجتُ إليهِ من البابِ الواســع يبدو لي أنّ الله يفتحُ لي اليومَ البابَ من جديد لأتمكّنَ من مغادرتِه."[١٦]

بعدَ أن خســـرَ عائدات مركزِه في الكاتدرائيّة بقيَ عليهِ الاهتمامُ بأملاكِه الأُخَر. فبدلاً من تجهيزِ المدارس وكانَ ذلكَ أمرًا طبيعيًّا ــ قاومَ "دلاسال" فكرةَ تأمينِها بأيّة وسيلةٍ أخرى غير العناية الإلهية، ورفعَ صلاتَهُ إلى الله "إن أنتَ أمّنت لها ما يلزم فسيكونُ كافيًا؛ وإن لم تفعل فستبقى من دونِ تجهيز." [١٧] خلالَ المجاعةِ الكبيرة في شتاء ١٦٨٣ــ ١٦٨٤ وجدَ "دلاسال" فرصةَ التّصرّف بثروتِه فوزّعَ يوميًّا الطّعام على كلّ ذي فاقة. كتبَ ف.ج باترسبي W.J. Battersby وهو من إخوةِ المدارس المسيحيّة ومدوّنٌ لسيرةِ حياة دلاسـال في وقتٍ لاحق:

"كان المتسوّلونَ يتوافدونَ من كلّ الأريافِ المجاورة بأعدادٍ كبيرة إلى المدينةِ بحثًا عن الطّعام وسكّانُ المدينة أنفسُـهُم كانوا في بؤسٍ شـديد من جرّاءِ ندرةِ المؤن وكلفتِها الباهظة. كانَ يكفي إذًا أن يقفَ على بابِ منزلِه كلّ يوم ليوزّعَ الخبزَ على من يرغب به. وسرعانَ ما عُرف أنّ الخبزَ متوفّرٌ لمن يطلبُه فحوصرَ منزُله. وكانَ في الوقتِ نفسِه يحتفظُ بكمّيةٍ مناسبة للأولادِ الجائعينَ في مدارسِه". [١٨]

لا نســتطيعُ أن نقولَ كم أعطى دلاســال بالضــبط. بِحســبِ التّقدير الحديث يمكن تحديدُ المبلغ ب٩٠٠٠ ليرة تقريباً، ما يســاوي على وجه التّقريب ال ٣٧٥,٠٠٠ دولار أميركيّ بِحسـب العملة الحاليّة وقيمة نسـبيّة أعلى في المجتمع في تلك الحقبة. بحســب الإطار الماليّ، نعرفُ أنّه قد بقيَ لديه ما يكفي ليجدَ نفسَـــه مع عائداتٍ سنويّة مساويةٍ لتلكَ التي كانت لإخوتِه، أي ٢٠٠ ليرة (تقريباً ٣٨٠٠ دولار أميركيّ في يومنا هذا).

الثّقة بالعناية الإلهيّة

"إنّ المثلَ يؤثّرُ أكثرَ بكثير من الكلامِ على الفكرِ والقلبِ بشكلٍ أساسيّ على الأولاد الذين لا يستطيعونَ التفكير فيتبعوا مثالَ معلّميهم عادةً ويميلونَ إلى فعلِ ما يرونهم يفعلون أكثرَ ممّا يسمعونَهم يقولون، بِخاصّة إذا لم تتطابق أقوالُهم مع أفعالِهم." - التأمل ٣،٢٠٢

لقد أُصيبَ الإخوةُ أنفسُهُم بذهولٍ من ردّةِ فعلِه على مُسائلتِهِم الصّريحة لهُ، إنّما لم يكُن بإمكانِهِم أن يلوموه على إجابتِه بتلكَ الثقة بالله. معَ ذلك، حينَ أصبحوا جميعاً بحالةِ الفقرِ نفسِها، أصبحَ واضحاً انعدامُ الأمان لديهِم. كانَ دلاسال يحثّهُم على النّظر من حولِهم ليروا كيفَ أنّ التّجارَ الأثرياء والجمعيّات الدّينيّة التي كانت تنعمُ بالبحبوحة قد أفلستهُم المجاعة وأنّ من كانوا بغيرِ حاجةٍ إلى الضّروريات الأساسيّة لم يَعُد لديهِم رأسمال ولا عائدات ماليّة. تلكَ الثّقة بالعنايةِ الإلهيّة عبرَ الفقر سوفَ يحافظ عليها طيلةَ عمرِه وقد كتبَ فيما بعد أنّ الإخوة لن يبقوا أحياء الّا من خلالِ بقائِهِم فقراء؛ وسوفَ يفقدونَ " روحَ وضعِهِم" إن هم بدأوا بالاعتيادِ على رفاهيةٍ تتخطّى ما هوَ ضروريّ لتلبيةِ حاجاتِهِم الأساسيّة.

سنة ١٦٨٥، سُلّمَت المدارسُ التي كانَ ادريان نييل Adrien Nyel فتحَها في مدنٍ أخرى إلى دلاسال فقد بلغَ السّتين من العمر وقرّرَ بالرّغمِ من محاولاتِ التّغيير التي اقترحَها دلاسال العودةَ إلى روان Rouen والعملَ في المأوى العامّ Hospice général الذي كانَ قد انطلقَ منهُ قبلَ ستّة أعوام. ولكنّ نشاطَ نييل Nyel وحماسَهُ كانا إلى انحلال. حينَ توفي بعدَ سنتين بِداءٍ رئويّ بكاهُ دلاسال وإخوتِه بمرارة.

الالتزام

في ذلكَ الوقت كانت الجمعيّة بِكاملِها والمدارسُ السّبعة التي كانت مسؤولةً عنها بيدِ السيّد "دلاسال". وبينما كانت شهرتُهُم تتصاعدُ شيئاً فشيئاً كانَ التزامُهُم يزدادُ متانةً من خلالِ تبنّيهم شكلاً موحّداً للثّوبِ كانَ يُسمّى "ثوباً فقيراً ومتواضعاً" وقد أثارَ شيئاً من الهُزء والسّخرية على مرّ السنين وكذلكَ اعتمادَهم تسمية "إخوة المدارس المسيحيّة". فخلالِ انعقادِ جمعيّة عموميّة لاثني عشر من الإخوة الرئيسيّين سنة ١٦٨٦ وبعدَ رياضةٍ روحيّة أحياها دلاسال، تمَّ اعتمادُ الثّوب والاسم بشكلٍ رسميّ. من خلالِ تعريفهم عن ذواتِهم كإخوة بعضهم لِبعضهم الآخر وإخوة كبار للشبّان الذين أوكلَهُم إليهم الله، كانوا يؤكّدونَ في الوقتِ نفسِه هويّتَهُم ورسالتَهُم. وتقرّرَ في الوقتِ عينِه كتابة مسوّدةٍ لقانونٍ رسميّ للحياةِ لاستخلاصِ الدّروس من التّجربة المستقبليّة. قرّرَ الإخوةُ في الجمعيّة إبرازَ نذرٍ خاصّ للطّاعة لمدّة ثلاث سنين يتجدّدُ سنويًّا؛ أصبحَ ذلكَ نوعًا من الالتزام "المتكرّر"، وقد قاموا به مع "دلاسال" يومَ أحدِ الثّالوث الأقدس سنة١٦٨٦. في اليومِ التّالي قاموا بمسيرةِ حجّ لمسافةِ ٤٥ كلم حتى مزار سيّدة لييس Notre- Dame- de- Liesse حيث جدّدوا نذرَ الطّاعةِ وسلّموا مستقبلَهُم لمريم.

هل عندكم من الإيمان ما يكفي ليستطيع أن يلمس قلوب تلاميذكم وينفخ فيهم الرّوح المسيحيّة؟ تلك هي أكبر المعجزات التي تستطيعون فعلها وهي ما يطلبه الله منكم بما أنّها غاية وظيفتكم. ـ تأمل ١٣٩,٣

التّطوّر والتّوسّع

شـهراً بعد شـهر كان حسّ الجماعة والرّسـالة الجماعيّة يتعزّزان عند الإخوة. اضـطروا أن يرفضـوا طلبات عديدة لتسلّم مدارس ريفيّة لأنّهم كانوا قد اعتمدوا سياسةَ عدم ارسال أقلّ من أخوين إلى مدرسةٍ ما، بِخاصّة وأنّ الكهنةَ في الرّيف كانوا يؤمّنونَ بصـعوبةٍ أجرَ معلّمٍ واحد. ذلكَ لا يعني أن "دلاسـال" لم يَجِد طريقةً ما لتلبية تلكَ الحاجة التّربويّة الواضـحة: تنشـئةُ المعلّمين من غيرِ الإخوة كانت ممكنة. تلكَ سـتبقى مهمّة تثيرُ اهتمامَ "دلاسال" دائماً. سنة ١٦٨٧، بدأ يستقبلُ شبّانَ القرى في أبرشيةِ رينس Reims الذينَ اختارَهُم كهنةُ الرعايا الرّيفيّة وأرسلوهُم ليخضَعوا للتّدريبِ كمعلّمين. استضافَ مجموعةً أولى من ٢٥ شخصاً في مبنى ملاصق للّذي كانَ الإخوة يشغلونَهُ. كانَ "دلاسال" يُشرفُ على تنشئَتِهِم كمُعلّمينَ مسيحيّين في حين كانوا يتشاركونَ مع الإخوة بعضَ النّشاطات. في هذا الاتّجاه كانَ العملُ شديدَ الإتقان. بعدَ الانتهاءِ من تنشئةِ بعض تلكَ الجماعاتِ من الرعايا في الضّواحي، لم تعُد هناكَ حاجةٌ لمعلّمينَ في مدارسِ الرّيف وانتهى ذلكَ المسعى الخاصّ. فيما بعد استُؤنفَت مدارسُ التنشئة تلكَ حينما كانت تدعو الحاجةُ إليها.

في السّنة التّالية، ١٦٨٧، وبعدَ الرّياضة الرّوحيّة التي تسبقُ أحدَ الثّالوث الأقدس، أصرَّ "دلاسال" على إخوتِه كي ينتخِبوا واحداً منهُم رئيسًا لهُم. انتخبَ الإخوةُ على مضضٍ الأخ هنري لورو Henri L'Heureux. كانَ "دلاسال" أوّلَ من ركعَ لتقديمِ فعلِ طاعةٍ للرّئيس الجديد. ولكن حينَ وصلَ إلى مسامعِ سلطاتِ الأبرشيّة ذلكَ التّطوّرُ الفريد، كانت ردّةُ فعلِهم غيرَ مؤيّدةٍ فلم يكن باستطاعتِهم أن يقبلوا أو يفهموا كيفيّةَ خضوعِ كاهنٍ كانَ سابقًا كاهنًا قانونيًّا في الكاتدرائيّة لأحدِ الإخوة وسرعانَ ما اضطُرَّ "دلاسال" لِلرضوخِ لأمرٍ مباشرٍ من مونسنيور لو تيلييه Mgr Le Tellier كي يعودَ إلى مكانِه على رأسِ الجمعيّة.

بعدَ خمسِ سنواتٍ من العيشِ في الشّارع الجديد rue Neuve كانَ الفريقُ قد تشكّلَ مع معنى واضح للجماعة ونظرةٍ واحدة وطريقةٍ واحدة للأعمالِ التربويّة النّاجحة وإدراكٍ يزدادُ وضوحًا لهويّتِه وهدفِه. شيئان يستحقانِ التّوقفَ عندَهُما في تلكَ المرحلة. أوّلًا: لم يكُن بعدُ للجمعيّة أوراقُ اعتمادٍ ولم تكُن إذًا تتمتّعُ بأي وضعٍ قانونيّ.(ذلكَ شيءٌ لم يلاحقهُ"دلاسال" أبدًا بشكلٍ جدّيّ ولن يحصلَ قبلَ وفاتِه.) كانَ الإخوةُ يخضعونَ لسلطةِ كلّ كاهنٍ في كلّ ما يختصُّ بالمدرسة حتى ولو كانَ ،على ما يبدو، "دلاسال" وإخوتُه يتّخذونَ قراراتَهُم بأدنى حدود الاستشارة. ثانيًا من جهةٍ أخرى، نادراً ما "فتح" مدرسة. ففي معظمِ الأوقات كانوا يدعونَهُ لتسلّمِ مسؤوليّةِ مدرسةٍ لها وضعٌ خاصّ بحاجةٍ ماسّة لمقاربةٍ جديدة. تلكَ الدعّوةُ الأولى إلى خدمةٍ جديدة تستمرُّ حتى يومِنا هذا وهي تعكسُ ثقةَ دلاسال بعنايةِ الله بالإنسان عبرَ الأحداث في حياته.

دور النّساء

+ شيءٌ آخر يستحقُّ الإشارةَ اليه هنا وهوَ الالتزامُ البليغ للنّساء في تطويرِ الكاريزما اللّاساليّة. والدتُه نيكول مويت دو برويي Nicole Moët de Brouillet كانت قد شـــكّلت طبعَهُ وتقواه. أمّا جدّتُه لأمّه وعرّابته بيريت ليسـبانيول Perette Lespagnol فقد كانت تحبّه كثيراً وظلّت طيلة عمرها نبع نصـائح ودعم له، منذ أن قرأت له *حياة القدّيســين Vies des Saints* حين كان طفلًا إلى أن زارته بعمر ٧٤ عامًا وقد اشــتدّ عليه المرض سنة ١٦٩٠ في مقرّ جمعيّة الإخوة المحلّيّ. السيّدة مايفر Madame Maillefer كلّفت ادريان نييل Adrien Nyel بإطلاق المدرسة الأولى موجّهة إياّه نحو راهبات الطّفل يسوع Soeurs de L'Enfant-Jésus اللّواتي كانت رئيستهن فرانسواز دوفال Françoise Duval صلة الوصل بين نييل Nyel ودلاسال. كاترين دي كراوبير Catherine des Croyères جهّزت المدرســـة الثّانية وقد التقت بنييل Nyel إنّما أصرّت على لقاء دلاسال وأقنعته بالإشراف على استثمارها في وأشركتهُ هكذا فعليًّا. ثمّ عندَ اقترابِ حياتِه من نهايتِها كانت الأخت لويز هور Soeur Louise Hours هيَ من أعادَهُ في بارميني Parménie إلى الأخوة وإلى دعوةِ الله له. أولئكَ النّســـوة مع غيرهنّ في أثناءِ الطّريق كنّ أدواتَ العنايةِ الإلهيّة عندَ إنشـــاء المؤسّسة، وتابعَت النّساء في المشاركة الأساسيّة بتشكيلِ المؤسّسة وديمومتِها.

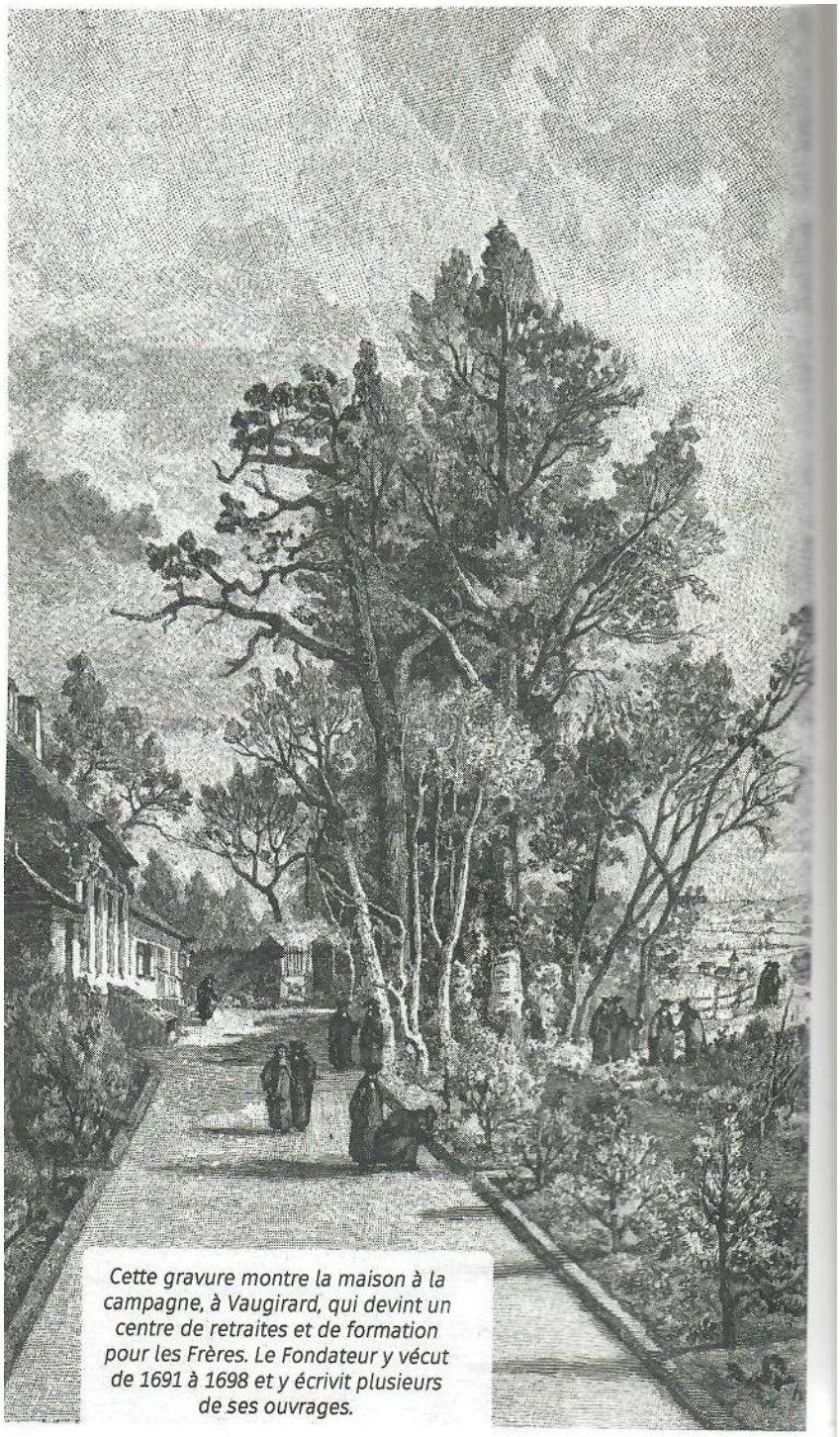

Cette gravure montre la maison à la campagne, à Vaugirard, qui devint un centre de retraites et de formation pour les Frères. Le Fondateur y vécut de 1691 à 1698 et y écrivit plusieurs de ses ouvrages.

لوحة تُظهر البيت الرّيفيّ في فوجيرار Vaugirard والتي أصبحت مركز رياضات روحيّة وتنشئة للإخوة. عاش فيها المؤسّس من سنة ١٦٩١ حتى سنة ١٦٩٨ وكتب فيها العديد من مؤلّفاته.

السّنوات المركزيّة

في حين كانَ عملُ الإخوة يصبحُ مشروعاً دينيًّا وتربويًّا ناجحًا، لم يطُل الوقت قبلَ أن تمتدَّ إمكانية الانتشار إلى أبعدَ من رينس Reims وضواحيها. كانَ رئيسُ أساقفة رينسReims قد اقترحَ أن يدعمَ تلكَ الجماعة الجديدة من النّاحيةِ المادّيّة فيما لو قبلَ أعضاؤُها البقاء فقط في أبرشيّته. إنّما في شباط سنة ١٦٨٨ مضى "دلاسال" واثنانِ من الإخوة إلى رعيّةِ سان سولبيس Saint Sulpice فقد كانَ راعيها يطلبُ منهُ منذُ سنين متعدّدة القدومَ لمساعدة المدرسة الخيريّة فيها. كانت الرّعيّةُ والكنيسة أنفسُهُما حيث تلقّى فيهِما تنشئَتَهُ كإكليريكيّ. كانت المدرسةُ مثالاً لكلّ ما ليسَ على ما يرام من الناحيةِ التربويّة. وفيما يلي وصفٌ تفصيليّ عن ذلك:

"في الصّباحِ الذي نزلَ فيه الإخوةُ للمرّة الأولى إلى الصّفوف ليبدأوا عملَهُم صُدِموا: لم يكُن هناكَ نظام. فُتحَت الأبوابُ عندَ الخامسة في الظّلمة. كانَ الأولادُ يحضُرونَ كيفما شاءوا وهم نحوَ المئتينِ تقريباً. بإمكانِكُم تخيّل من حضروا في البداية وقد أرسلَهُم أهلُهم فورَ ذهابِهم إلى العمل وكانوا يحتمونَ بعضُهم ببعضِهم الآخر حولَ المصباح في غرفةِ الصّفّ خلالَ ساعتينِ أو ثلاث من الظّلام وسطَ النّعاس والثّرثرة أو اللّعب بالورقِ أو القتال أو ألعاب المقامرة في الملعب. عندَ العاشرة كانوا يصرفونَ الأولادَ ثمّ يُعادُ فتحُ الأبواب من السّاعةِ الواحدة حتى الرّابعة. كانَ الأولادُ يتعلّمونَ القراءةَ والكتابة على يدِ المعلّم ومعاونِه، ثمّ كانوا يتعلّمونَ حياكةَ الجوارب والقفّازات وأشياءَ أُخَر...كانَ المعلّمُ يبيعُ السّلعَ المصنّعة تارةً لحسابِه الخاصّ وطورًا لمساعدةِ الفقراء جُزئيًّا. وكانَ المعلّمُ يعطي من حينٍ لآخَر درساً في الدّين. ولم تكُن هناكَ أيَّةُ محاولةٍ لمنع أولئكَ الذين لا عملَ لديهِم قبلَ المدرسة وخلالَ وجودِهِم فيها من اللّعبِ بالورقِ وطاولةِ النرد."[19]

بالرّغمِ من أنّ الإخوة غير مسؤولينَ عن المدرسة، فقد كانَ لهُم تأثيرٌ سريع، وذلكَ من خلالِ تغييرِهم ما استطاعوا اليه سبيلاً في صفوفِهم. خلالَ أشهرٍ قليلة طُلب من "دلاسال" تولّي أمرَ المدرسة كلّياً وقد أُعطيَ المالَ اللّازم لاستقدامِ اثنين من الإخوة من رينسReims . وفي الحال بدأت التّغييراتُ الباهرة في المدرسة: دوامٌ ثابت للدّروس مع التّعليمِ الدّينيّ والصّلاةِ اليوميّة كنقطةِ ارتكاز، ساعةٌ ثابتة للحضورِ إلى المدرسة ومغادرتِها (كانَ البابُ يُغلقُ بالمفتاح في جميعِ الأوقات الأُخَر، أو مشاركةٌ يوميّة في قدّاسِ الرّعيّة خلالَ استراحةِ الظّهر الطّويلة وتشديدٌ اقلّ على صنعِ وبيعِ الجوارب والقفّازات، الخ.

الصّعوبات

حين افتتحوا مدرسةً أخرى في الرّعيّةِ نفسِها سنة 1690 اعترضَ معلّمو المدارسِ الصّغيرة Maîtres des Petites Ecolesعليها أمامَ المحاكم، وهم جماعةٌ من المعلّمينَ الخواصّ من ذوي الحقوقِ التي كانَ يدافعُ عنها عادةً الأب كلود جولي Père Claude Joly الذي كانَ ناظراً على مدارسِ الأبرشيّة ويُشرفُ على 167 مقاطعةٍ مدرسيّة باريسيّة. كانَ أولئكَ المعلّمون يزعمونَ أنّ المدرسةَ الجديدة كانت تقبلُ التّلاميذَ الذين

يدفعونَ أقســاطًاً بالرّغمِ من أنّها مدرســةٌ خيريّة. بعدَ تســجيلِهِم انتصــاراً أمامَ المحاكم، رُفضــت حُجّتُهُم في الاستئناف، ولكنّ المعاركَ القانونيّة في باريس كانت قد بدأت للتوّ. لم يكن السّببُ الرّئيس لتلك الدعاوى يكمنُ في أنّ "دلاســـال" يعلّمُ الفقراء، ولكنّهُ وإخوته لم يكتفوا بتعليمِ الفقراء، أي انّهم كانوا يســـتقبلونَ كلَّ الأولاد ويُعاملونَهُم بالطريقة نفسِــها. معلّمو المدارسِ الصّــغيرة Maîtres des Petites Ecoles واتّحادُ معلّمي الكتابة la Guilde des Maîtres de l'Ecriture أو المعلّمون الكتبة، (وهم فريقٌ من اتّحادِ كتبة يديرون حصـريًّا مدارس كتابة) والمدارس الخيرية التي تشـرف عليها الرّعايا ولقد كانت كل واحدة منها تعلّم موضـــوعات متشـــابهة لزبائن متباينين بطرق مختلفة، وكلٌّ منها تطالبُ بامتيازاتٍ خاصّـــة، لم يكُن من المســتغرب ان يســتعصـــي الأمرُ على السّــلطات في تحديدِ مطالبِهِم المشــروعة لتعليمِ بضــع موادٍ لبعضِ الجماعات، هذا طبعاً من دون أن نتحدّث عن فهمِ كيفيّة تموضـعِ "المدارس المسيحيّة " الجديدة وسطَ كلّ هذا الخليط.

ظهرت الصّـــعوباتُ أيضـــاً من قِبَل أوســـاطٍ أخرى. لم يكُن الأخوان الاثنان اللّذان قدِما إلى باريس مع "دلاســـال" متّفقين معهُ على بعضِ قراراتِه، فكانَ أن غادرَ أحدهما. كما وغادرَ نصــفُ أعضـــاء الجمعيّة في رينس Reims وتوزّعَ الإخوةُ الباقون وعددُهُم ثمانية، على مدارس المنطقة السّـــبع. لم يُظهِر كاهنُ ســـان ســـولبيس le curé de Saint Sulpice تعاونًا بل كانَ جاهزاً ليتدخّلَ وينوبَ عنهُم. أصـــابَ الإرهاق "دلاســـال" وإخوةَ باريس من كثرةِ العمل؛ كانت المعنويات في أدنى مســـتوياتِها حينَ أصـــابَ المرض الأخ هنري لورو Henri L'Heureux وتوفّي ــ وكانَ "دلاسال" قد علّقَ عليهِ آمالًا لإدارة المؤسّسة كلّهاــ إنّما بالرّغمِ من أنّ هذا الحدث الأخير قد تسبّبَ لدلاسال بجرحٍ عميق على المستوى الشّخصيّ، فإنّهُ قد بحثَ ووجدَ للمأساة أبعادًا مصدرُها تدبيرٌ إلهيّ. كانَ الأخ هنري قد نالَ تنشئةً لاهوتيّة كهنوتيّة بهدفِ تحمّلِ المسؤوليّة عندَ الحاجة كرئيسٍ للإخوة، فقد فهمَ دلاســـال أنّ الجمعيّة يجبُ أن تكونَ فقط مؤلّفةً من الإخوة، وأنّ بُعدَها غير الإكليريكيّ كانَ يشـكّلُ جزءًا من طابعِ الجماعة الأسـاس مسـتحضِـراً أسـباباً روحيّة وعمليّة في الوقتِ عينه. سوفَ يكونونَ إخوةً لا كهنة.

تنشئة الإخوة

وجدَ دلاسال أيضاً عقارًا في ضواحي باريس، في فوجيرار Vaugirard سيُخصّصُ ليصبحَ نبعَ مواردٍ لكلّ الإخوة وديرَ ابتداء أو مركزَ تنشـئةٍ للمرشّـحين الجُدُد. سـنة ١٦٩١، أحضـرَ إليهِ الجميع لأجلِ رياضـةٍ روحيّة ممتدّة تحتَ إدارتِه. كانَ لكثيرٍ من الإخوة تنشـئةٌ دينيّة متواضـعة قبل تسـليمِهم صـفوفَ شـبّان الشّـوارع. حينَ أيقنَ دلاسال أنّ بعضهم يلزمُهُ مزيدٌ من الوقت، مدّدَ الرّياضة طولَ السنة المدرسيّة مستعينًا ببعضِ المعلّمين العلمانيّين ممّن كانَ قد درّبَهُم خلالَ برنامج التنشـــئة لمعلّمي رينس Reims لينوبوا عنهُم في مدارسِـــهم. وقد أصـــابَت تلكَ الرّياضـــة الروحيّة نجاحاً جعلَ الوقتَ المخصّـص للتجدّد الدّينيّ يصـبحُ جزءًا ثابتًا من البرنامجِ السّنويّ للإخوة.

أخيراً توطّدَت الموضوعات الدّينيّة والتّربويّة في تأمّلاتِه لزمنِ الرّياضة Méditations pour le temps de la retraite وهو نصٌّ محوريّ يجمعُ عناصـــرَ كثيرة عن دعوةِ المعلّم الفريدة. بإشـــارةٍ لها مغزى، تحتَ عنوان الكتاب الأسـاس، كُتبَت الجملةُ الآتية: " بتصـرّفِ كلّ الأشـخاص الذينَ يهتمّونَ بتربيةِ الشّـبيبة وبشـكلٍ خاصّ للرّياضةِ التي يقومُ بها إخوةُ المدارسِ المسيحيّة في وقتِ العطلة." كانَ الجمهورُ المقصودُ أوسعَ بكثير

من الإخوة. بالرّغمِ من أن الكتابَ قد كُتبَ أســـاســـاً للإخوة، كانَ دلاســـال يعرفُ أنّ كثيرينَ بمن فيهِم معلِّمو مدارس الرّيف الذينَ درّبَهُم في رينس Reims ســـوفَ يُفيدونَ من تطوّرٍ روحانيّةٍ تربويّة أكثرَ عمقاً، ترتكزُ على الدّين، وفي المحصّلة سوفَ يكسبونَ من سنيّ التّجربة التي يشاركُهُم بها الإخوة.

كم من مرّةٍ يحضرُ فيها يسوع ويقرعُ بابَ قلبِكُم ليقيمَ فيهِ مسكنَه من دون أن ترغبوا باستقبالِه؟ لماذا؟ لأنّه لا يحضر إلّا من خلالِ شكلِ فقير، وعبد، ورجل أوجاع. -تأمل ١,٨٥

بعدَ ذلكَ الزّمن من الرّياضـــة الممتدّة، كانت تعليماتُ الإخوة أن يكتبوا شـــهريًّا لدلاســـال لاطلاعِه على تصرّفهِم واستعداداتهِم الدّاخلية. كان يجيبُ بأمانةٍ على كلّ رسالةٍ بشكلٍ سرّيّ. خلالَ أكثرَ من ٢٥ عامًا كان ذلكَ الرّابطُ الوحيد لهُ مع كثيرٍ من الإخوة. بهذا الشّـــكل كانَ الورعُ الذي أحدثتهُ الرّياضـــة يدومُ طيلةَ السّـــنة وحتى المستقبل. كانت الرّســائلُ تساعدُ الإخوة على التّفكيرِ بالتّقدم الذي حقّقوه في دعوتِهِم وفي الوقتِ نفسِه تبقي دلاسال مطّلِعًا على وضعِ ما كان يُسمّى حينَها المؤسّسة. تُقرأ الرّسائلُ كمحادثةٍ تنعكسُ بطريقةٍ مألوفة. كانت أجوبةُ دلاســـال مباشـــرةً ودقيقة، مع شـــيءٍ من الثّرثرة أو بدونِها. لم يتمّ الاحتفاظُ إلّا بالقليل من آلاف الرّســائل التي كتبها دلاســال بهذه الطّريقة. أمّا الرّســائلُ المئة وعشــر الموجّهة إلى مختلفِ الإخوة الذين بقوا على قيدِ الحياة، فهيَ توفّرُ إحدى أكثر النّظرات الكاشفة لطبع دلاسال.

القانون والنّذور

كانَ دلاسال يرغبُ أيضًا بالتغلّبِ على الشّكوك والصّعاب المتصاعدة التي كانت تواجهُها الجمعيّة والتي كانت ســتســتمرّ بمواجهتِها في المســتقبل. وقعَ اختياره على رجلينِ متفانيين كان يبدو أنّهما منَ الأكثرَ التزامًا في الجمعيّة وعرضَ عليهما إبرازَ نذرٍ خاصّ لترسيخِ المؤسّسة مهما حصل.

قاما بذلكَ في 21 تشــرين الثّاني ســنة 1691 في فوجيرار Vaugirard. خلالَ ســنواتٍ كثيرة لم يدرِ أحدٌ بهذا النّذر الذي سيسمّيهِ الإخوة فيما بعد " النّذر البطوليّ". بالرّغمِ من أنّ هذا الإعلان عن الشّراكةِ قد تعرّضَ للامتحان بطرقٍ متعدّدة، فإنّهُ معَ ذلك وفّرَ قاعدةَ نوايا والتزامٍ اســتطاعوا البناء عليها. ربّما من الدّلالةِ بمكان أن يكونَ الأب جان-جاك أوليي Jean-Jacques Olier مع اثنينِ من رفاقِه قد قاموا بإبرازِ نذرٍ خاصّ مشابه بتاريخ 21 تشــرين الثّاني 1641 أي قبل 50 عامًا في فوجيرار Vaugirardوذلكَ لإنشــاء إكليريكيّة ســان ســولبيس Saint -Sulpice وهوَ المكانُ الذي كانَ لهُ تأثيرٌ مهمّ على حياةِ جان باتيســت دلاســال الشّــخصــية والروحيّة.

رسم لجان . باتيست دلاسال وهو يكتب قانون الإخوة.
عمل ل أوغست – لويس شابون Auguste-Louis Chapon
بناء على لوحة من سنة 1887 لشارل – لويس مولر Charles-Louis Müller.

في ربيعِ سـنة 1694 بدأ دلاسـال بوضـعِ قانونٍ رسـميّ للإخوة. عُرضَ مشـروعُ هذا النصّ على الإخوة مع إشـارةٍ واضـحة إلى أنّ على عاتقِهم تقعُ مسؤوليةٌ في إضـافة أو حذف المواد وفقَ ما يرونَهُ مناسـباً ثمّ يوافقونَ عليه. نظامُ الحياة هذا الناتج من التّجربةِ المشـتركة للإخوة إتّخذَ شـكلًا طيلةَ حياةِ المؤسّـس ولم ينتهِ إلّا بعد المجمع العامّ Chapitre Général سنة 1717. اعتُمِد الجدولُ لسنواتٍ في رينس Reims سنة 1686؛ ثمَّ تمّ تعديلُه وتطويرُه على ضوءِ تجربة الإخوة. حينَ وُضع نظامُ سنة 1694، كانت خياراتُ دلاسال انتقائيّةً بما فيهِ الكفاية، فقد اسـتقى من مصـادرٍ متعدّدة ولكن مع ملاءمتِها لحياتِهم وخدمتِهم الفريدة. حينَ طُرحَ موضـوعُ تقديمِ النّذور الدّائمة لطولِ العمر، اقترحَ دلاسـال مع الإخوة الأكبر سنًّا الذينَ استشـارَهُم أن يتمَّ الالتزامُ بنذورٍ موجّهة خصّيصـاً لرسـالتِهم في بسطِ ملكوت الله من خلالِ التّربية. وهكذا، في 6 حزيران سنة 1694 في أحدِ الثّالوث قامَ 12 من الإخوة مع دلاسـال بمعزلٍ عن الآخرين بإبرازِ نذورٍ دائمة للشّـراكةِ في إدارةِ المدارس المجانيّة والاستقرارِ في الجمعيّة والطّاعة. في الغد، حينَ أوصى دلاسال من جديد الإخوةَ بانتخابِ رئيسٍ جديد من بينِهم، انتُخِبَ للحال وبالإجماع من جديد ولمرّتينِ متتاليتين وقد ذُهِلَ كثيراً لذلك. حينَ أبدى الإخوة ملاحظةً في أنّ تلكَ ببسـاطةٍ هيَ مشـيئةُ الله، كفَّ دلاسـال عن محاولةِ تغييرِ رأيِهم ولكنّه عمدَ إلى جعلِهم يُمضونَ إعلاناً ينصُّ أنّ الانتخاب الحاليّ:

..." لن تكونَ له القوّةُ السّابقة في المستقبل. إنّ نَّيتنا هيَ أنَّه بعدَ المدعوّ جان-باتيست دلاسال وبشكلٍ دائم في المستقبل لن يتمّ استقبالُ أحدٍ فيما بيننا أو اختيارِه كرئيسٍ فيما لو كانَ كاهناً أو قد تلقّى الدرجات الكهنوتيّة. ولن

نقبلَ بأيّ رئيسٍ لا تكونُ لهُ شـراكةً معنا أو لم يُبرز نذورًا مثلنا ومثلَ جميعِ الذينَ سـوفَ يكونونَ في شـراكةٍ معنا في المستقبل..." [20]

كانَ الطّابَعُ الفريد للجمعيّة كرسالةٍ تربويّة جماعيّة مستقلّة وعلمانيّة تستندُ إلى الرّسالةِ قد أصبحَ أكثرَ وضوحاً بالنّسبةِ لدلاسال وسوفَ يعملُ ما في مقدورِه حتى يحافظَ على هذه الكاريزما ويقوّيها.

التّدعيم

في ذلكَ الحين بدأ دلاســـال والإخوةُ بتقويةِ جمعيَّتهم فدعّموا المدارسَ والجماعاتِ التي كانت قد ازدهرت وعملوا على تنشــئةِ المرشّــحينَ الشّــباب الجُدُد الذينَ كانوا يطلبونَ الالتحاقَ بهم في طريقةِ عيشِــهم. صَــبَّ "دلاسـال" جلَّ اهتمامِه على خلقِ تشكيلةٍ من الوسـائلَ المكتوبة للمدارس كما للإخوة. كانَ اتّسـاعُ تلكَ الأعمال ومحتواها فعلاً مثيراً للاهتمام. كانت تشملُ كلّ شيء بدءًا بنصِّ قراءةٍ للتّلاميذ عن التّهذيبِ وحُسنِ التّصرّف، إلى الصّـلواتِ التي تُقال في المدرســة، إلى طريقةِ تعليمِ الأحرفِ الفرنسـيّة، إلى ثلاثِ نسـخٍ من التّعليم الدّينيّ موجّهة إلى ثلاث فئاتٍ مختلفة من الشّــعب، مرورًا بِطريقةٍ مفصّــلة للصّــلاةِ الدّاخليّة للأخوة، إلى "الكتيّب" العمليّ والمتجدّد دوماً حولَ إدارةِ المدارس، وصـــولًا إلى مجموعةٍ من نصـــوصِ التّرانيم التي كانَ بإمكان التّلاميذ إنشـادَها على ألحانٍ شـعبيّة رائجة، وختامًا التّأملات لكلّ الآحادِ وأعياد السّنة الطّقسيّة. [21] خلالَ خمس عشرة سنة ما بين 1694 و1709 فُتِحَت مدارسُ جديدة ثمّ أُغلِقَت، التحقَ بها إخوةٌ وغادروا، احتدمَت المعارك القانونيّة مع معلّمي الكتابة Maîtres de l'Ecriture ومعلّمي المدارسَ الصّـغيرةMaîtres des Petites Ecoles وشيئاً فشيئاً ترسّخَت الهويّةُ التي كانَ دلاسال بدأ بتشكيلِها عند الإخوة.

صـورة: رسـم بالرّيشـة والحبر لبنجامين فوتيه (1829- 1898) بعنوان " أولاد يغادرون المدرسـة " مع أحد الإخوة الواقف على الباب ينظر إليهم بشيٍ من السّلوان. هناك نسختان للّوحة إحداهما موجودة في متحف فكتوريا والبير في لندن.

التّوسّع والتّطوّر

فيما يلي بعضُ الأحداثِ البارزة خلالَ تلكَ السنين:

- أسّـسَ الإخوة مدرسـةَ الأحد للعمّالِ الباريسـيّين ما دونَ ال 20 سـنة الذينَ كانوا يرغبونَ إمّا بإكمال دروسِـهِم بعدَ المسـتوى الابتدائيّ، إمّا تعلّم القراءة والكتابة في حالٍ لم يرتادوا المدرسـة من قبل. كانَ اثنان من الإخوة الأكثر موهبةً يدرّسـانِ القراءة والكتابة والرّياضـيّات والرّسم والتّعليم الدّينيّ والفنون بعدَ ظهرِ يومِ الأحد في " أكاديميّة الأحد المسيحيّة".
- أُنشِئَت مدارسٌ في شـارترChartres ، إذ طلبَ الأسـقفُ من الإخوة أن يعلّموا اللّاتينيّة على غرارِ مدارسَ أُخَر، فكانَ جوابُ دلاســال في كتابةِ مذكّرةٍ يدافعُ فيها عن تعليمِ التّلامذةِ الفرنسـيّة لغتَهُم الأم عوضــاً عن اللّاتينيّة. أمّا أسـبابَهُ فكانت أنّ الفرنسـيّةَ عمليّة أكثر من تعليم اللّاتينيّة؛ فاللّغة الفرنسـيّة ســهلةُ التّعلّم وتتطلّبُ وقتًا أقلّ، وفائدَتُها أكبر، وبإمكانِها أن تكونَ وســيلةً لتعلّم اللّاتينية، ثمّ هيَ أداة ضروريّة لتعلّم أشياء أُخَر(بما فيها العقيدة المسيحيّة) . هذا عدا أنّ اللاتينيّةَ لا فائدةَ منها للعمّال إنْ لم يتوفر الوقتُ الكافي للتّمكّنِ منها في المدارسِ المســيحيّة، وبدا على الذينَ لم يعرفوها إلّا لِمامًا شــيءٌ من البلاهةِ حينَ كانوا يحاولونَ استعمالَها.
- أُرسِلَ أحدُ المشاركين "بالنّذر البطوليّ" وهوَ الأخُ غابريال درولين Gabriel Drolin إلى روما مع الأخ جيرار (Gérard وقد كانَ أخاه أو شقيقه) وذلكَ بهدفِ تأسيسِ مدرسة. حينَ وصولهما، ما كانا يتكلّمانِ اللّغة، وكانت لهُما معارفُ قليلون، ووجدا أنّ تربيةَ الفقراء مؤمّنةٌ بشـكلٍ جيّد. بالإضــافةِ إلى أنّ روما كانَ لها نظامٌ مدرســيّ منظَمًا جدّاً ويخضــعُ للإكليروس الذي لم يكُن يُبدي اهتمامًا يُذكر لأيّ نمطٍ آخر في التّربية. عادَ الأخّ جيرار ســريعاً إلى فرنســا، أمّا الأخ غابريال Gabriel فقد بقيَ في

روما طوالَ 26 سنة (1702 -1728) مُجاهِداً بأمانةٍ للحصولِ على موطئ قدمٍ في النّظامِ التّربويّ الكنسيّ. حصلَ أخيرًا على إجازةٍ ليدرّسَ في إحدى المدارس البابويّة، وأسَّسَ أخيرًا مدرسَتَهُ الخاصّة بالرّغمِ من أنَّهُ لم يستقبل أخًا ثانيًا كما كان دلاسال يعده غالبًا في الرّسائل التي ما زالت في حوزتنا حتى اليوم. قدم إخوة آخرون ولكن بعد وفاة دلاسال. يُنسَب تأسيس مدارس روما اليوم إلى السّنوات القيّمة الطّويلة لرسالة الأخ غابريال درولين Gabriel Drolin.

- أُنشِئَت مدارسٌ في مدنٍ أُخَر بِخاصّة في كالي Calais أفينيون Avignon مرسيليا Marseille وغرونوبل Grenoble وكانت كلُّ مدرسةٍ تعتمد ميزانُها الخاصّة تبعًا للحاجات المحليّة وتوقّعات التّوظيف الممكنة التي سيواجهُها الطّلّاب. في الوقتِ نفسِه كانت التّربية والطّريقة موحّدة في الإجمال على قاعدة الخبرة والدّروس التي كانت تُعطى في المدارس المسيحيّة الأُخَر. حينَ كانَ الإخوة يمرّون بِمدرسةٍ وينتقلون إلى أخرى، كان بإمكانِهم بفضل ذلكِ وبكلّ سهولة، الاستئنافَ حيثَ توقّف الآخرون.

هل لكُم عاطفة المحبة والحنان تجاهَ الأطفال الذينَ تربّونَهم؟ وهل تغتنِمونَ فرصةَ العاطفة التي يشعرونَ بها تُجاهكُم لتحمِلوهُم إلى الله؟ إن كانَ لكُم تجاهُهُم حزمُ الأب لإنقاذِهِم وإبعادِهم عن الفوضى يتوجّبُ أيضاً ان يكونَ لكُم حنانُ الأم لاستقبالِهم والإحسان إليهِم بما هو منوطٌ بكُم. - التأمل *101.3*

- مرّت مدرسة سان سولبيس Saint Sulpice وجماعتُها في باريس بِأزماتٍ متعدّدة. سمّى رئيسُ أساقفة باريس رئيسًا كنسيًّا جديدًا للإخوة، وذلكَ بسبب صرامةٍ تأديبيّةٍ داخليّة تمَّ رصدُها عندَ الكثيرين من الإخوة الذين كانوا مسؤولينَ عنها. رضيَ دلاسال بهذا التّعيين ولكنَّ الإخوة لم يريدوا حتى السماع بذلكَ ولم يتردّدوا في الإعلانِ عن رفضِهم ممّا تسبّبَ بضجّةٍ كبيرة. ولم يقبَلوا بالزّيارة التي قامَ بها الرّئيسُ إلى بيتِهِم إلّا من خلال تسوية. ثمّ في سنة 1706 منعَت المحاكمُ البرلمانيّة، وهي إحدى المحاكمِ العليا في باريس، دلاسال والإخوة" من تأسيسِ أيّةِ جماعةٍ تحتَ اسمِ مدرسةِ تنشئةٍ لمعلّمي المدارس الابتدائيّة أو ما يُشبِهُها" في باريس أو في ضواحيها، من دونِ إذنٍ صريح من ناظرِ المدارس في الأبرشيّة. أمّا ردُّ مدارس رعيّة سان سولبيس Saint Sulpice الثّلاث فَكانَ بالإغلاق الفوريّ للمدارس ومغادرة باريس بين ليلةٍ وضُحاها. لم يقتنع الإخوةُ بالعودةِ إلّا بناءً على نداءٍ مُباشر من قِبَل الأب دلاسال بعد تسويةٍ عادلة مع السّلطات.

- قَدِمَ الإخوة لاستعادةِ المدارس الخيريّة الأربع في روان Rouen التي كان ادريان نييل Adrien Nyel قد أدارَها قبلَ التزامِه مع دلاسال. عاشَ دلاسال وخمسةٌ من الإخوة خلالَ عامينِ في المأوى العامّ في المدينة l'Hospice Général يهتمّونَ بسكّانِها في إطارِ عقدِهِم ويُديرونَ إلى جانبِ ذلكَ المدارسَ الخيريّة في المدينة. سنة 1705استقرّوا في سان إيون Saint-Yon وهي ملكيّةٌ واسعة بعيدة عن ضواحِي المدينة، فيها قصرٌ ريفيّ وحدائقُ واسعة ومحيطٌ هادئ. هنا كانت تتمُّ تنشئةُ

المبتدئين، والرّياضـة السّنويّة، وتمَّ إطلاقُ ثلاثةَ مشـاريع: مدرسـةٌ داخليّة للصّـبيان الأكبر سـنًّا الذينَ كانوا يتوجّهونَ إلى العملِ في التّجارة والصّـــناعة، وهوَ أوَّلُ برنامجِ دراســـةٍ ثانويّة من هذا النوع؛ وسجنٌ إصلاحيّ للأولاد حيثُ كانَ التّلامذةُ يخضعونَ لمُراقَبَةٍ صارمةٍ خارجَ الصّفوفِ المشتركة معَ سـواهُم من التّلاميذ؛ وسـجنٌ للشّـبانِ المحكومينَ من قِبَلِ المحاكمِ بأحكامٍ صـادرة عن الملك وممهورةٍ بختمِه. نجاحُ الإخوة في تغييرِ كثيرينَ منَ الذينَ أُخِذوا على عاتقهم، فاقَ الصّـــعوبات والتّحدّيات التي مثّلتها تلكَ المؤسّـســاتُ الجديدة، وقد ســاهمَت العائداتُ التي أنتجَها ســان إيون بدعمِ العمل في أمكنةٍ أُخَر.

- كلُّ تلكَ المؤسّسات الجديدة بالإضافةِ إلى الهمومِ اليوميّة التي تتطلَّبُ انتباهًا، دفعَت دلاسال أخيرًا إلى تعيينِ أحدِ الإخوة في افينيون Avignon للإشــرافِ على جميعِ مدارس الجنوب، وآخرَ على مدارس رينس Reims وجوارِها –فأصبحَت كلمةُ " الزّائر" متداولةً وهي التي تشيرُ إلى الرؤساء اللّساليّين الحاليّين للمناطِق. وهكذا أســتُبقيَ مبدأ تعليمِ الفقراء "معًا وبالشــراكة": معًا في الجماعة المدرســيّة وبالشّراكةِ مع كلِّ تلكَ الجماعات المدرسيّة الأُخَر.

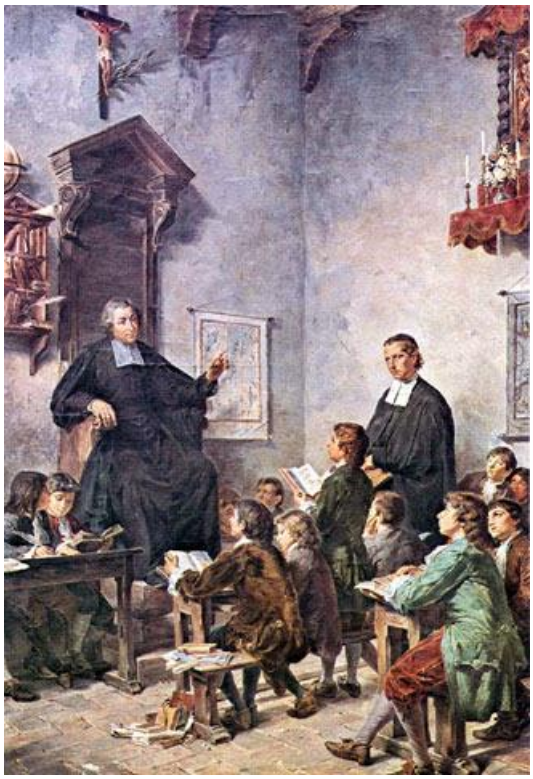

رسم ليوحنا دلاسال وهو يعلّم في الصّف ل سيزاري ما رياني Cesare Mariani (1826-1901).
بمناسبة تطويب دلاسال سنة 1888 قدّمت الرّهبنة هذه اللّوحة الكبيرة للبابا ليون الثّالث عشر.وقد عرضت من وقت لآخر في متحف الفاتيكان أو في المركز العامّ للرّهبنة في روما.

السّنوات الأخيرة

في وقتٍ ما من حياتِه، حينَ كانَ دلاســـال يفكّرُ في المدارِس وفي السّـــنوات الأولى، كتبَ أنّهُ لو علمَ بِكُلِّ الصّـــعوبات والتّجارب التي كانَت تنتظرُه لما أقدَمَ أبدًا على الالتزامِ بهذِه الخدمة. ولكن في الواقِع، حينَ كانَ يقتربُ من بلوغِ سنّ الستّين وبعدَ أكثرَ من 25 سنة من العملِ مع الإخوة، كانَت بعضُ مِحَنِه الأكثر صعوبة على وشكِ البدءِ بالظّهور. عانى الإخوة في كلّ أنحاءِ فرنسا مع بقية الشّعب من الصّقيعِ والمحاصيل السّيّئة ومتطلّباتِ حرب خلافة عرشِ إسبانيا (1701-1714) التي تسبّبت بمجاعةٍ عظيمة سنة 1709مع كلّ البؤسِ الذي واكَبَها. انتقلَ المبتدئونَ من روان Rouen إلى باريس لبضعِ سنوات وذلكَ ليتمكّنَ الإخوة في روان من حصرِ اهتمامِهم بِحاجاتِهم الخاصّة. متعدّدةٌ هي الرّهبانيات التي أفلسَت أو تضاءَلَ عديدُها بسببِ المرض والموت، ولكنّ الإخوةَ عاشوا وكانَ دلاسال يحثّهُم دائمًا على إيداعِ أنفسِهم للعنايةِ الإلهيّة.
تلكَ الثّقة المُطلقة بالعنايةِ الإلهيّة التي كانَ دلاسال يُبديها لم تكُن سذاجةً ولا ورعًا خدّاعًا. لقد عاشَ كثيرًا من الخُبُراتِ التي أكّدت عنايةَ الله الدّائمة بهِ وبعملِ إخوتِه. في الوقتِ نفسِه كانَ دلاسال يجهَدُ في العملِ ليتّبِعَ الاتّجاهَ الذي كانَت إرادةُ الله تقودُهُ إليه. كانَت امكانيّاتُه الإداريّة دقيقةً بقدرِ ما كانَت رؤيويّة. ففي حين كانَ يمارسُ فروضَ التّوبة ويُشجّعُ إخوتَهُ على أسلوبِ حياةِ التّقشّف، كانَ في الوقتِ ذاتِه يهتمُّ براحتِهم ويُشدِّد مثلًا على أن يكونَ لمنازِلِهم باحةٌ أو حديقةٌ يستريحونَ فيها ويستردّونَ قوَّتَهُم بعدَ متطلّبات غُرَفِ التّدريس.

أنتم مُجبَرون على تعليمِ أولادِ الفقراء: ونتيجةً لذلِكَ يجب أن يكونَ لكُم حنانٌ خاصٌّ تجاهَهُم وعليكُم تأمين منفعتِهِم الرّوحيّة على قدرِ الإمكان وتنظروا إليهِم كأعضاء ليسوع المسيح وكأحبّائِه. على الإيمان الذي يحيا فيُكم أن يحثّكم على إكرامِ يسوع المسيح في شخصِهِم ويجعلُكُم تفضّلونَهُم على أكثرِ النّاس غنىً على الأرض لأنهُم الصّورة الحيّة ليسوع المسيح مُعلّمنا الإلهيّ. أظهِروا من خلالِ اهتمامِكُم بِهِم أنّهُم فعلًا أحبّاؤكم. — التأمل 80.3

استمرّت سمعةُ المدارس المسيحية الطيّبة بالمساهمة في إنشاءِ مؤسّساتٍ جديدة في أماكنَ أخرى مثل فرساي Versailles وسواها بالرّغمِ من التّحديات القانونيّة والكنسيّة الصادرَة عن كهنةٍ وأساقفة من كلّ أنحاء فرنسا. أمّا بالنسبة لدلاسال شخصياً فإنّهُ سيُواجِه محنةً هيَ الأعظم في حياتِه بسببِ وضعٍ قانونيّ. وصفُ ذلكَ مُعقّد بعضُ الشيء ولكنّهُ جديرٌ بأن يُعرَف لأنّهُ يكشِف عدّة جوانِب من طبعِه ومن الظّروفِ التاريخيّة التي عاشَ خلالَها.

تحدّي قانونيّ وشخصي

سنة 1707 اقترحَ شابٌّ علمانيّ ميسور، هو جان- شارل كليمان Jean-Charles Clément أن يتمَّ استعمالُ جزءٍ مهمّ من مصروفِه الشخصيّ لتأسيسِ مركز تنشئة لمعلّمي المدارس الريفيّة. بالرَّغمِ من تحفّظ السيّد دلاسال حيالَ حماسةِ الشاب وحُكمِ المحكمة الذي حُرّمَ عليهِ فتحُ مدرسةٍ لتدريبِ المعلّمين في قضاءِ الناظر في باريس، كانَ كليمان Clément مُهتمّاً بهذا المشروع الى درجةِ "الالحاح المرضيّ" ممّا حدا بدلاسال لمنحِه

سـلفةً هامّة سـنة 1708 ليتمكّنَ من شـراءِ ملكيّة لمركزِ التنشـئة في سـان دنيس Saint-Denis . افتُتِحَت المدرسـة سـنة 1709وسـرعانَ ما عرفَت نجاحَ مدارس تنشـئةِ المعلِّمين على غرارِ المدارِس التي كانَ الإخوةُ يُديرونَها سابقاً.

كان كليمان Clément قاصـرًا بِحسـبِ القانون (أقلّ من 25 سـنة) ولذلكَ كانَ أحدُ المحامين قد اشـترى لمصـلحتِهِ المنزل ؛ وكانَ المحامي يملكُ إيصـالًا ممهورًا بإمضـاء كليمان Clément يؤكّدُ فيهِ لدلاسـال أنّه سَـيَفيهِ دينَهُ حالَما يحصـل على مركزٍ يُخوّلُهُ الحصـولَ على أرباحٍ ماليّةٍ مرتبطةٍ بديرِ سـان كالي Saint-Calais الغنيّ وكانَ حدثًا وشيكًا. حينَ أصبحَ ذلكَ المركزُ واقعًا سنة 1710، تبدّلَ موقفُ كليمان Clément فجأةً ، ورفضَ أن يفي الدّين لدلاسـال أو أن يسـدّدَ الحسـابَ بالرّغمِ من أنَّهُ كانَ يُصـرُّ بشـكلٍ مُسـتغرب على رغبتِه في أن يكونَ المنزلُ له. تعقّدَت الأمورُ حينَ حاولَ المالِكُ الأساس استعادةَ المنزل في حين كانَ المحامي يحاولُ بيعَه إلى زبونٍ آخر. من ثمّ حينَ تدخّلَ والدُ الشّـاب وهو طبيبٌ معروف في البلاط ولهُ علاقاتٌ جيّدة تعقّدَت الأمورُ أكثر. سنة 1711 ، وبعدَ سفرٍ قصير إلى جنوبِ فرنسا حيثُ زارَ جماعاتَ الإخوة، عادَ دلاسال إلى باريس ليعلَمَ أنّ عائلة كليمان Clément التي رقّاها الملك حديثًا إلى منزلة النّبلاء، لن تقبلَ بأقلّ من الحكمِ العلنيّ عليهِ أمَام المحاكم، وكأنَّهُ مجرمٌ استغلّ قاصرًا لخدمةِ مصالِحِه الخاصّة. لم يكفِ عرضُ دلاسال بإلغاء الدّين ولا دليل الاتّفاق الأوّل للتّعويض عن أنّ كليمان Clément كانَ قاصـراً في ذلك الوقت. فَصـدرَ حكمُ المحكمة ضـدّ دلاسـال في 31 أيار سـنة 1712. لم يقتصِـر الأمرُ على اضـطرارِ دلاسـال إلغاءَ الدّين وإيفاء المبالِغ التي كانَ كليمان Clément قد دفعَها لدعمِ مركزِ التّدريب، بل عُوقِبَ لمحاولتِه الحصـولَ على وعود ماليّة؛ صدرَت توصيةٌ في حقّه بعدمِ الدّخول في مناقشةِ الأعمال مع القاصرينَ أي الذينَ هم ما دون 25 سنة. في الواقع كانَ قد حُكِمَ عليهِ بما قد نُسـمّيهِ اليوم ب" المسـاهمة في دفعِ قاصـرٍ إلى الجُنوح" ، حتى لو بدا ذلكَ غريبًا نظرًا للوقائع.

حينَ علِمَ دلاسـال من خلالِ مُحاميهِ في كانون الثّاني سـنة 1712 بخسـارتِه الدّعوى المُقامَة ضِـدّهُ و أنّهُ سـيتمُّ الحجزُ على منزل سان دنيس Saint-Denis وإغلاق المدرسة وأنّ هناكَ حُكمًا بتوقيفِه، قرّر الرّحيل.

(الهربُ من منطقةِ إحدى المحاكم في ذلكَ الزّمن لم يكن نادرًا بالنظرِ إلى فسـاد" عدالة" المحاكِم). عهدَ دلاسـال إلى محاميهِ بالوثائِق المتعلّقة بالقضـيّة و بِموجزٍ عن تاريخِها بمُجملِه، وغادرَ باريس ليعاودَ جولتَهُ في الجنوب. حينَ صدرَ الحكمُ النهائيّ ضدَّهُ في أيّار، كانَ في زيارةِ الإخوة في مارسيليا Marseille أي خارجَ نطاقِ باريس.

بالنسـبةِ إلى الإخوة في الشّـمال كانَت أزمة حقيقيّة. فَتهيأ لهُم أنّ دلاسـال قد تخلّى عنهُم حينَ رحلَ سـريعًا بالرّغم من الصّـعوباتِ المتعدّدة التي كانوا يواجهونَها. في الواقعِ كانَ دلاسـال قد تركَ مديرَ المبتدئين الأخّ برتليمي Frère Barthélemy ، وهوَ غيرُ معروفٍ نسبيًّا، على رأسِ الإخوة وفعلَ ما كانَ يظنُّ أنَّهُ الأفضل بالنسبةِ إليهِم. ربّما كانَ يفكّرُ بانّ الوقتَ قد حانَ ليتعلّمَ الإخوةُ كيفيّة إدارةِ أمورِهِم بأنفسِهِم.

راسـلَ برتيليمي Barthélemy كلّ الجماعات ليخبرَها أنّ دلاسـال بخير وأنّهُ اضـطُر للهربِ وأنّ المكانَ الذي لجأ اليهِ معروفٌ و أنّهم -بِحسـب مشـيئةِ أبيهِم المشـترك- يسـتطيعونَ الكتابةَ لـه-أي برتيليمي Barthélemy- وأنَّهُ سـيفعلُ ما بوسـعِه لتلبيةِ حاجاتِهم. وقد حاولَ إفهامَهُم أنّهُ كانَ مجرّدَ نائبٍ عن رئيسـهِم

الفعليّ إلى حينِ عودتِه وأنّهُ لم يكُن يشغلُ هذا المنصب عن حقٍّ شخصيّ، وسوفَ يحاولُ أن يحكُمَ بحسبِ فكرِ دلاسال. أسهَمَ ذلكَ في توضيحِ الأمور لدى كثيرينَ من الإخوة فتقبّلوه بتلكَ الشّروط. كانت المسألة حسّاسةً بالنّسبةِ اليهِم في أن يحاولَ مطلقُ أخ أن يحُلَّ مكانَ من كانوا يعُدّونَهُ قدّيسًا ومؤسّسًا لا غنى عنه. إنّما كانَ الوقتُ قد حانَ بالنسبةِ إليهِم كي يواجِهوا تنصيبَ أحدِ الإخوة رئيسًا عامًّا لهُم قبلَ وفاة دلاسال وأن يزيحوا هذا الحملَ الثّقيل عن كاهلِ رجل بدأ يشيخ.

لقد التزمتُم أمامَ الله بالنّيابةِ عمّن تُعلّمونَهم؛ وإنّكُم بتحمّلِكم الاهتمامَ بأرواحِهم قدّمتُم لهُم نوعًا ما روحًا عن روح .هل سبقَ وفكّرتُم بعضَ الأحيان بالالتزامِ الذي تعهّدتُم به باحتمالِ أولئكَ الذينَ أخضعَهُم الله لكُم وبكيفيّة الإستجابةِ له؟ هل تهتمّونَ بأمرِ خلاصِهم كما تهتمّونَ بخلاصِكُم الشّخصيّ؟ - التأمّل 137-3

دامَ سفرُ دلاسال إلى جنوبِ فرنسا بدءًا من شباط 1712 أكثرَ من سنتين. لا ندري بالتّحديد إن كانَ هذا الفراق الطّويل مع الإخوة في الشّمال كان مردُّهُ إلى تضاؤلِ نفوذِه وإلى معارضةٍ فاعلة ضدَّهُ من قِبَلِ بعضِ السّلطات الكنسيّة في باريس، وكذلكَ قرارُ المحكمة ضدّهُ، أو إلى رغبةٍ صادقة في الانسحابِ من صراعاتِ الإخوة لتسهيلِ استقلاليّتِهِم. خلالَ مُكوثِهِ في جنوبِ فرنسا يبدو مع ذلكَ أنّهُ حافظَ على اهتمامٍ شديد بالمدارس وبتطوّرِ الإخوة دينيًّا ودعوتِهم بالرّغمِ من بعضِ الظّروفِ الطّارئة خلالَ المسيرة.

بعدَ مرورِ الشّهرِ الأوّل من زيارتِه الإخوة ووجهاء افينيون Avignon، حيثُ كانت المدارسُ قد أُنشِئَت بنجاحٍ منذُ سنة 1703، استأنفَ دلاسال الجولةَ التي كانَ بدأها منذُ سنةٍ على الجماعات. في أيّ مكانٍ يحلُّ فيه، كانَ دلاسال يُستقبَلُ من قِبلِ الإخوة والرّعاة والأساقفة بكثيرٍ من الاحترام وحسنِ الضّيافة ممّا كانَ يدعوهُ غالبًا إلى تقصيرِ زياراتِه أو الرّحيلِ سرًّا لتجنّبِ المعانقةِ والتّكريم اللّذين كانَ يحظى بهما. خلالَ تلكَ الزّيارات كانَ يُشجّعُ الإخوة في دعوتِهِم، ويحُثُّهُم على البقاءِ أُمناءَ على واجباتهِمِ الدّينيّة. حينَ كانَ بعضُ المناصرينَ يطلبونَ تعيينَ إخوةٍ بشكلٍ دائِم في مدارسِهِم، كانَ يشرحُ لهُم طبيعةَ الجمعيّة وأهميّةَ استقلاليّتِها بالرّغمِ من عدمِ وجود نظامٍ كنسيّ أو قانونيّ لها. يتوجّبُ على الإخوة أن يُرسَلوا حيثُ يستطيعونَ الخدمةَ بأفضلِ حال.

حاولَ دلاسال أن يؤسّسَ دير ابتداء في مرسيليا Marseille، إنّما لم ينجح وأقفلَهُ بعد مدّةٍ وجيزة. كانَ تأثيرُ الجنسانيّة Jansénisme متجذّراً في المنطقة إلى درجةِ أنّ النّاسَ لم يكُن باستطاعتِهِم دعمُ تنشئة أشخاصٍ سوف تتمُّ إحالتُهم إلى العملِ خارجَ فرنسا. أضف إلى ذلكَ أنّ جماعات كثيرة من الإخوة قاومَت جهودَهُ بإصلاحِ نمطِ الحياة السّهلة التي كانوا اعتمدوهُ تدريجيًّا.

ابتعاد

ظنّ دلاسال أنّهُ من الأفضل تركَ الإخوة يتدبّرونَ أمورَهُم بأنفسِهِم فغادرَ مارسيليا Marseille بهدوء متسلّقًا منحدراً حادًّا لخمسينَ كيلومتراً إلى أن وصلَ إلى المغارةِ المقدّسة في سانت- بوم Sainte-Baume وهي مغارةٌ شهيرة إذ تُعدُّ المكانَ الأخير لسكنِ مريم المجدليّة. هناكَ بدأ البحثَ عن إرادة الله في الوحدةِ والصّلاة، بينما كانت الشّائعاتُ تدورُ حولَ تخلّيهِ الوشيك عن الإخوة للعنايةِ الإلهيّة والالتحاقِ برعيّةٍ بعيدة حيثُ سيعمل

على هدايةِ الخطأة المتأصّـلين. بعدَ مكوثِه في سـانت-بوم Sainte-Baume الذي أتبعَهُ برياضـةٍ روحيّة لمدّة أربعينَ يومًا في دير سـان-ماكسـيمان Saint-Maximin القريب، ذهبَ إلى جماعةِ مدينة ماند Mende حيثُ كانَ الإخوة قد اعتمدوا طريقةَ عيشٍ سـهلة. إنّما لم يسـتطِع دلاسـال أن يجعلَهُم يحيدونَ عنها قيدَ أنملة وازدادَ حزنُهُ حينَ لم تتمكّن الجماعةُ (أو لم تشأ) أن تستضـيفَهُ في منزلِ الإخوة. بقيَ طيلةَ شـهرين في البداية في ماندMende مع الكبوشيّين وفيما بعد عندَ الآنسة ليسكور Mademoiselle Lescure مؤسِّسة سيّداتِ الوحدةِ المسيحيّة Dames de l'Union Chrétienne وقد ساعدَها في كتابةِ قانونٍ لمؤسّستِها التّربويّة.

يومًا بعد يوم كانت قناعةُ دلاسـال بالبقاءِ على رأسِ الإخوة تتضـاءَل. كانَ الإخوة في باريس يبدونَ أفضـل بدونِه، أمّا في مرسـيليا وجوارِها فلم تكُن نصـائحُهُ لتؤثِّرَ فيهِم كثيراً. حينَ لجأ إليه الأخ تيموتي Frère Timothée مديرُ ديرِ الابتداء السّابق في مرسيليا Marseille ليخبرَهُ عن ديرِ الابتداء الخالي، ويسألَهُ أن يعيّنَهُ في مكانٍ آخر، كانَ جوابُ دلاسـال هوَ الآتي: " لماذا تأتي إليّ بكلِّ هذا؟ ألا تعلم أنّني لا أملكُ مهارة إصـدارِ الأوامر للآخرين؟ ألا تدري أنّ الإخوةَ الذينَ لا يرغبونَ في أيّ علاقةٍ لي معهُم هم كُثُر؟ هم يقولونَ إنّهم لا يرغبونَ فيّ كرئيسٍ عليهِم. وهم على حقّ. لم أعُد حقًّا قادرًا على ذلك؟" [23]

بحسب أحد أوائل كاتبي سيرتِه، "لم يستطِع الأخ الذي كانَ يحتفظ باحترامٍ شديد لرئيسِهِ المُوقّر حبسَ دموعِه خلالَ ذلكَ الحديث، رمى بنفسِـه عند قدميهِ وقالَ لهُ إنّه لن يترُكَهُ قبلَ أن يعرفَ مشـيئتَه. عزّاهُ دلاسـال مشـيرًا إليهِ بمنزلٍ يلجأ اليهِ بانتظار أن يعيدَ لهم الله إن شـاءَ الطّمأنينة." اقتنعَ دلاسـال حينَها من خلالِ ذلكَ الأخ أنّه ما زالَ مرغوبًا فيه بشـكلٍ ضـروريّ ومُلِحّ. أرسـلَ عندئذٍ الأخ تيموتي Timothée إلى جماعة افينيون Avignon. (فيما بعد سـيصـبح الأخ تيموتي Timothée رئيسًـا عامًّا بعد أن اختارَهُ الإخوة خلفًا للأخّ بارتيليمي Barthélemy وبقيَ في هذا المنصب مدّةَ 31 سنة من 1720 حتى 1751.

في شهر آب من سنة 1713، ذهبَ دلاسال إلى جماعةِ الإخوة في غرونوبل Grenoble حيثُ استقبلَهُ الإخوة بحفاوة. اختارَ المكوثَ في مخدعٍ معزول في برجٍ يشكّل قسماً من المنزل حيث قضى وقتَهُ في الوحدة والصّلاة طوالَ أشـهرٍ عديدة وهو يعمل على الكتابة. ولكن حينَ أرسلَ أحدَ الإخوة إلى الشّمال للحصـولِ على مزيدٍ من المعلومات عن وضـع الإخوة هناك، اهتمّ بصـفوفِه في المدرسـة وكانَ يقودُ التلاميذ بانتظامٍ إلى الكنيسـة المجاّورة ويحتفلُ بالذبيحة الإلهيّة. أثّرَت تقواهُ الحارَّة في أهلِ غرونوبل Grenoble حيثُ ما زالَ ذكرُهُ مُكرّمًا حتى اليوم.

بارميني Parménie حيث اتّجه دلاسال في سنواته الأخيرة ووجد السّلام وسط مشاكله.
من هناك استدعاه الإخوة ليعود ويستأنف عمله معهم ومع المؤسّسة.
حاليًّا بارميني Parménie هي مركز لسّالي للرّياضات الرّوحية.

تسبّبَ الشّتاءُ القاسي بمضارّ على صحّتِه وهدّدَت نوباتٌ جديدة من الروماتيزم حياتَهُ. كانت المدينةُ بكلّ أطيافِها تصلّي على نيّةِ شفائِه.

صمّمَ دلاسال أن يقومَ برياضةٍ روحيّة أخرى فالتحقَ بمحبسةٍ قربَ غرونوبل Grenoble تُدعى بارميني Parménie. كانت تلكَ المحبسة قد بُنيت منذُ وقتٍ قصير فوقَ أطلالِ ديرٍ من القرون الوسطى. في مركز الرّياضات ذاكَ الذي أسّستهُ راهبةٌ تقيّة ورائية ورعة هيَ الأخت لويز. بقيَ دلاسال في البداية 15يومًا وقد قضى وقتًا في التحدّثِ إليها وفيما بعد في مراسلتها. كانَ يذهبُ لهناك في كلّ مرَّةٍ يضطرّ فيها المرشدُ وهو كاهنٌ صديق أن يغيب. بعضُهم يظنّ أنّ دلاسال كانَ يفكّرُ جدّيًّا بالبقاء في بارميني Parménie ربّما كمرشدٍ روحيّ دائم.

دعوة الإخوة لدلاسال إلى باريس

خلالَ تواجُدِ دلاسال في غرونوبل Grenoble تلقّى رسالةً مؤرّخة في أوّلِ نيسان من عام1714 مصدرُها المدراء والإخوة الأساسيّونَ في المنطقة الباريسيّة. كانَ الإخوة في تلكَ المنطقة قد حاولوا التّواصلَ معَهُ منذُ

مدّةٍ طويلة إنّما لم تكن رسـائلُهُم تصـلُهُ أو أنّهم لم يتلقّوا أبدًا أيّةَ إجابة عنها من قِبَلِ دلاسـال. كانَ الوضـعُ في باريس شديدَ الصّعوبة بسببِ تزايدِ تأثيرِ الرّعاة السولبيسيين sulpiciens في أمورِ جماعتِهِم الخاصّة، وكذلك لأنّهم كانوا بحاجةٍ إلى النّصائح في الكثيرِ من المسائل الإداريّة التي كانت بحاجةٍ لسلطةٍ مركزيّة واضحة. في تلكَ الرّسـالة كانَ الإخوة في الواقِع يأمرونَ دلاسـال من خلالِ نذرِهِ للطّاعة بالعودةِ وتسـلّمِ الإدارةِ العامّة للجمعيّة.

" أيّها السـيّد، أبانا العزيز. نحنُ، الإخوةُ الرئيسـيّينَ في المدارسِ المسـيحيّة، وهدفُنا المجدَ الأعظم للرّب والخيرَ الأكبر للكنيسـة ولجمعيّتنا، نعترفُ بأنَّهُ من الأفضـلِ معاودة اهتمامِكُم بالإدارة العامّة لعملِ الله المقدّس والذي هوَ من صُنعِكُم أيضًا، بما أنَّهُ قد حَسُنَ لدى الله أن يستخدمَكُم لتأسيسِه وادارتِه منذُ وقتٍ طويل.
الجميعُ مقتنعٌ بأنَّ الله وهبَكُم العطايا والوزنات الضّـروريّة لتُحسِـنوا إدارةَ هذه المؤسّـسـة الجديدة والتي فيها فائدةٌ عظيمة للكنيسة، وأنّهُ من العدلِ أن نشهَدَ أنّكُم لطالما أحسنتُم إدارَتَها بالنّجاحِ وحسنِ التّأثير.
ولذلكَ، أيّها السيّد نرجو منكُم بتواضـعٍ كلّيّ ونأمرُكُم باسمِ الجزء الذي وعدتُموه بالطّاعة في المؤسّـسـة، أن تبادروا فورًا إلى تولّي الإدارةِ العامّة في مؤسّستنا". [24]

لجأ دلاسـال إلى مشـورةِ الأخت لويز Soeur Louise وهي الرّاعية الأمّيّة التي أعادَت إعمارَ بارميني Parménie وأصـبحَت أيضًـا موضـعَ ثقةٍ له. فقالت لهُ:" من الواضـح أن الله يريدُكَ أن تعودَ إلى باريس". لم يكُن قد أنهى عملَهُ، ورغمَ ذلك أجاب: تلكَ العودة الجديدة إشـارةٌ من الله لدعمِ المدارس. وهكذا في 10آب سنة1714 وبعد أن قامَ بمحطّات متعدّدة في مختلفِ الجماعات في طريقِه، عادَ دلاسال إلى باريس، وقرعَ بابَ منزل الإخوة قائلًا لهُم: حسنًا! هأنذا! ماذا تريدونَ منّي؟
أعلمَ دلاسال الإخوة أنّهُ عوضًا عن تسلّمِ مسؤوليّة المسائل العاديّة في الجمعيّة سوفَ يتولّى فقط مهامَّهُ الدّينيّة الطّقسـيّة ويُسـدي النّصـائحَ حيثُ تكونُ ضـروريّةً أو تُطلَبُ منه، ولكن يتوجّبُ على الأخ بارتيليمي Barthélemy تولّي أمرَ إدارة المؤسّسة بمعاونةِ الإخوة الأكبرَ سنًّا.

"اكتفوا بما أمكَنَكُم أن تعمَلوا، بما أنّ الله يرضـى بذلِك؛ ولكن لا تُقصّـروا بما يمكنُكُم أن تفعلوا بالنّعمة: وآمنوا أنّكُم تستطيعونَ أكثرَ ممّا تظنون بنعمةِ الله، شريطةَ أن ترغبوا بذلك. " - مجموعة مختلف المقالات القصيرة

بدأت تدريجيًّا خبرةُ دلاسـال وموقفُهُ وحكمَتُه وتأثيرُه بإرسـاء الاسـتقرار وبحلّ المشـاكل الإداريّة التي كانت تطوّرت خلالَ السّـنوات الأخيرة بعد مرورِ عـامٍ في بـاريس. عملَ دلاسـال على إعـادة الأخ بـارتيليمي Barthélemy مع بعضِ الإخوة المبتدئين الباقين إلى ملكيّة سـانت إيون Saint-Yon في روان Rouen حيثُ حضـرَ هو أيضًـا بعدَ شـهر. كانَ رئيسُ الأسـاقفة الجديد في روان Rouen أقلّ تعاونًا من سـلفِه فطلبَ كهنةُ الرّعايا من دلاسال نصائحَ عن كيفيّةِ معاملة الخطأة المتصلّبين وسرعانَ ما وجدَ نفسَهُ أمامَ طلباتٍ دائمة كمعرّف ومرشد روحيّ.

الفترة الانتقاليّة في الإدارة

في سانت إيون Saint-Yon، بدأ دلاسال العملَ على تأمين الاستقرارِ المستقبليّ للجمعيّة. أسهَمَ تقشفُ دلاسال وأسفارُه المهمّة وأمراضُه المتكرّرة ـــ أصيبَ بمرضٍ خطير طيلةَ ١٠ أشهر في سانت إيون Saint-Yon - في حثّهِ على أن يفهمَ هوَ والإخوة أنّهُم فعلًا بحاجةٍ إلى انتخابِ من يخلُفُه ليُكمِلَ المهمّة التي كانَ قد بدأها. الخيارُ الأوضـــح وقعَ على الأخ بارتيليمي Barthélemy هوَ الذي حافظَ على الجمعيّة مُوحّدةً خلالَ غيابِ دلاسال في الجنوب وما زالَ يهتمّ بالتّفاصيلِ الإداريّة.

في نهايةِ سنة ١٧١٦ وقد بلغَ دلاسال سنَّ ال٦٥ أُرسلَ الأخ بارتيليمي Barthélemy لزيارةِ جميعِ منازل الإخوة تحضيرًا لجمعيّةٍ عموميّة في السّنة القادمة. قامَ بتلكَ المهمّة وقضى خمسةَ أشهرٍ جمعَ خلالَها إمضاء الإخوة الذينَ قبلوا الجمعيّة العموميّة. تبيّنَ أنّ تلكَ الوثيقة الحاملة إمضاءَ الإخوة في جماعاتِ تلكَ الحقبة هي نبعُ معلوماتٍ ثمينة، فهيَ تعدّدُ كلَّ الجماعات الأولى مع أسماءِ أعضائِها. كانَ هناكَ ٢٣ جماعة مع ٩٩ أخًا وضعوا توقيعَهُم على الوثيقة بالإضافةِ إلى دلاسال والأخّ بارتيليمي Barthélemy، والأخّ غابريال درولان Gabriel Drolin الموجود في روما. ستةُ عشر مندوبًا وجميعُهُم مدراء مختلفِ المنازل اجتمَعوا في سانت إيون Saint-Yon في ١٦ أيار سنة ١٧١٧. بدأوا برياضةٍ روحيّة امتدّت لأيّامٍ متعدّدة، حدّثَهُم دلاسال خلالَها عن النّظم التي يجبُ عليهم الحفاظُ عليها وأوحى إليهِم بطريقةِ انتخابِ رئيسٍ جديد وأعطاهُم صـــلاةً كانَ قد ألّفها وهوَ يستدعي معونةَ الرّوح القدس. بعدَ ذلكَ لازمَ غرفتَهُ مقاطعًا الاجتماعات بشكلٍ كلّيّ ليتمكّنَ الإخوةُ من التصرّفِ بحرّيّة.

من بينِ القرارات التي اتُّخِذَت، تمَّ اختيارُ الأخّ بارتيليمي Barthélemy رئيسًا عامًّا جديدًا. أمّا المناقشات حولَ مراجعةِ قانون الإخوة فقد استغرقت كثيرًا من الوقت. معَ اقترابِ نهاية الوقتِ المتّفق عليهِ أفضَت كثرةُ التفاصيل المطروحة للنّقاش إلى قرار أنّه على "دلاســال" أن يحضّـرَ نسـخةً معدّلةً من القانون تستندُ إلى محادثاتِ الجمعيّة العامّة. في السّنةِ التّالية أكملَ دلاسال تلكَ المراجعة مُضيفًا إليها من جملةِ ما أضافَ مقطعًا قصيرًا يشدّدُ فيه على الأهميةِ المركزيةّ لروحِ الإيمانِ والغيرة كمكوّنٍ أساس لمهمّةِ المؤسّسة. كانَ ذلكَ واحدًا من الأشياءِ الأخيرة التي كتبَها دلاسال. وهوَ يستندُ إلى سنواتِه المتراكمة في الإدارةِ والصّلاة والكدّ كما على حُبّهِ العميق لله والإخوة ودعوةِ التّربية. منَ المفيد الإضاءة على الأجزاءِ الرّئيسة لهذا الجزء من القانونِ الذي أضافَه:

*ما هوَ أكثرُ أهميّةٍ وما علينا ان نحافظَ عليه في وســطِ الجماعة، هوَ أن يكونَ كلّ أفرادِها يتشـــاركونَ الفكرَ نفسُـــه. فليجتهِد المبتدئونَ لاكتســابِه، وليكُن أوّلُ اهتمامات من التزموا بِه أن يُطوّروه في ذواتِهم؛ لأنّ ذلكَ الفكر هوَ الذي يجبُ أن يُحيي كلّ أعمالِهم ويُعطي دفعًا لكلّ تصـــرّفاتِهم؛ أمّا أولئكَ الذينَ لا يملِكونَه، أو فقدوه، فيجبُ أن ينظروا إلى أنفسِهم ويُحتَسَبوا كالأعضاء الموتى...إنّ روحَ هذه المؤسّسة هي أوّلًا روحُ الإيمان الذي يجب أن يُلزِمَ جميعَ مكوّناتِه ألّا ينظروا إلى أيّ شـــيء إلّا من خلالِ نظرةِ الإيمان، وألا يقوموا بأيّ شيء إلّا من خلالِ التّطلّع إلى الله، وأن ينسُبوا كلّ شيءٍ له. ثانيًا إنّ روحَ المؤّسسة كائنةٌ في غيرةٍ متّقدة لتعليمِ الأولاد...حتى يعيشَ الإخوةُ هذا الفكرِ يجبُ عليهِم أن يجتَهدوا في الصّلاة والتّعليم، بسهَرِهِم وحُسنِ سلوكِهم في المدرسة لتأمينِ خلاصِ الأولاد الموكلينَ إليهِم وتربيتِهم على التّقوى بروحٍ مسيحيّة حقيقيّة اي بحسبِ تعاليمِ وقيمِ الإنجيل المقدّس.*٢٥

كانَ هنالكَ أيضًا تعليماتٌ إضافيّة منها: أن يقرأ الإخوةُ الإنجيلَ يوميًّا،" مع حسبانِه أنّهُ أوّلُ وأهمّ قانونٍ لهم". هذا النّظامُ الذي وُضِـعَ سـنة ١٧١٨كانَ مُرشِـدًا للإخوةِ حتّى سـنة ١٩٦٧ حينَ تمّت مراجعَتُه المعمّقة جوابًا على مذكّراتِ المجمع الفاتيكانيّ الثّاني.

العبور إلى الصّفوف الخلفيّة

ما إن تمَّ انتخابُ الأخ بارتيليمي Barthélemy رئيسًـا عامًّا بشـكلٍ رسـميّ حتى بدأ دلاسـال بالتّراجعِ إلى الصّـفوفِ الخلفيّة، مُحيلًا كلّ طلباتِ النّصـحِ أو الأذوناتِ إلى الرّئيسِ الجديد. حينَ اضـطُرّ دلاسـال للعودةِ إلى باريس لقبولِ إرثٍ كانَ قد تركَهُ لهُ المحامي المتورّط في قضيةِ كليمان Clément ـــ بعض الأموال التي كانَ المحامي يعلمُ أنّهُ من غيرِ العدلِ حرمانَهُ منها، وأموالٌ كانت تسمحُ لهُ بفضلِ العنايةِ الإلهية شراءَ ملكيّةِ سانت -إيون Saint-Yon في روان Rouen- بقيَ في عزلةٍ في ديرِ ابتداء سـان نيقولا دو شـاردوني Saint-Nicolas-du-Chardonnet لمدّةِ خمسـة أشـهر. في مركزِ التجدّد والإصـلاح للإكليروس لن يتعارضَ وجودُه مع الدّورِ الجديد للأخ بارتيليمي Barthélemy وسـوفَ يتجنّبُ مظاهرَ التّكريم والتّقدير التي كانَ الإخوةُ يُبدونَها له. وجودُهُ في ديرِ الابتداء، كما في كلّ الأمكنةِ التي كانَ يتواجدُ فيها تركَ أثرًا عميقًا في الكهنة والمبتدئينَ هناك. حينَ عادَ إلى سـانت إيون Saint-Yon كانت تنشـئةُ المبتدئين على الصّـلاةِ الدّاخليّة عاملَ رضـىً كبيراً له. كتبَ بحثًا عن الصّـلاةِ وجمعَ مختلف التّأمّلات التي كتبها عبرَ السّـنين للإخوة. كانت مهمّتُه المقدّسة تشملُ العنايةَ بالإخوةِ وبطلّابِ المدرسة الدّاخليّة والمساجين وكانَ همُّه بشكلٍ خاصّ أن يربحَ البالغين المتمرّسينَ المتواجدينَ في السّجن.

المرض والموت

اشتدّ المرضُ على دلاسال سنة ١٧١٩. أصبحَ داءُ الروماتيزم عندَهُ متأصّلًا وازدادَت حدّة نوباتِ الرّبو لديه.

رسم لجيوفاني غاغلياردي Giovanni Gagliardi ١٩٠٨،١٨٦٠ لوفاة جان باتيست دلاسال.

أدّت حوادثُ متعدّدة تعرّضَ لها إلى جروحٍ كثيرة في رأسِه ما سبّبَ لهُ آلامًا في الرّأس متواصلةً وشديدةً منعتهُ من القراءة والكتابة. اضطرّ تدريجيًّا لِملازمةِ الفراش، وقد منعَهُ وَهنَهُ من ممارسةِ خدمتهِ الكهنوتيّة. الاستثناءُ الوحيد كانَ في ١٩ آذار يومَ عيدِ القدّيس يوسف شفيعِ الرّهبنة وحاميها حينَ استردّ دلاسال شيئًا من قوّتِه ليحتفلَ بالذّبيحة مع الإخوة. تقبّلَ المناولة في ٥ نيسان وكانَ يصادفُ يومَ الأربعاء من أسبوعِ الآلام، وكذلكَ مسحةَ المرضى أي المشحة الأخيرة كما كانوا يسمّونَها يومَ خميسِ الأسرار. قرابةَ المساء من ذلكَ اليوم، تمكّنَ من إسداء بعضِ النّصائح الأخيرة للإخوة، وحثّهُم على أن يبقَوا معًا وأن يتجنّبوا العلاقات بدونِ تكلّف مع المجتمع لأنّ ذلكَ قد يقودُهم إلى خيباتِ أمل وفقدانِ دعوتهم. حوالي منتصفِ اللّيل، حينَ سألهُ الأخ بارتيليمي Barthélemy إن كانَ يتقبّل آلامَهُ أجابَ دلاسال بكلماتٍ أخيرة: "أجل إنّني أعبدُ في كلّ شيء إرادةَ الله لي."

عند الرّابعة فجرًا، يومَ الجمعة العظيمة، جهدَ دلاسال محاولًا القيامَ من سريره كما لو كانَ يريدُ أن يؤدّي التّحية، ثمّ ضمّ يديهِ ورفعَ ناظريه إلى السّماء وأسلمَ الرّوح. دوّن كاتبُ سيرتِه الكاهن القانونيّ بلان Blain:" بدا وجهُه بعد الوفاةِ بالجمالِ والسّلام أنفسهما، الذي كانا عليه عندما كانَ ما يزالُ على قيد الحياة."[٢٦] تمّ دفنُه يومَ سبت النّور في كنيسةٍ جانبيّة في الرّعيّة المحلّيّة المجاورة، سان سيفير .Saint-Sever بما أنّه كانَ أسبوع الآلام، فقد تأجّلت مراسمُ الدّفن إلى الأسبوع التّالي. انتشرَ الخبرُ في روان Rouen وفي كلّ المجتمع:" ماتَ القدّيس". كانَ امتدادُ حياتِه وعملِه وفكرِه وتأثّيره بالكاد قد بدأ، متخطّيًا ما كانت صلواتُه تستطيعُ تصوّرَه.

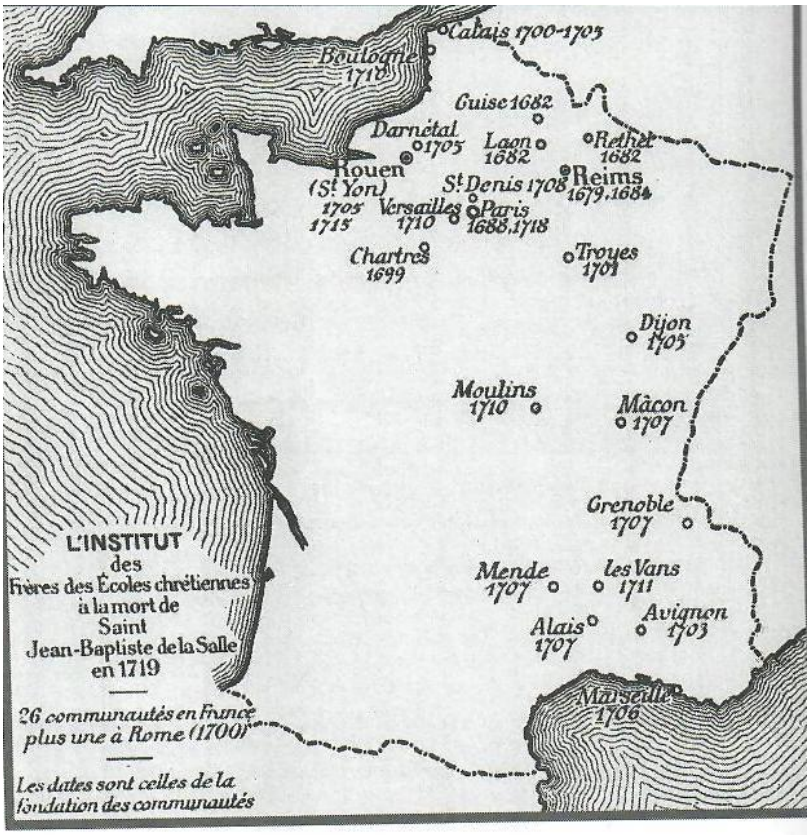

Une carte de l'étendue de l'Institut et de l'éducation lasallienne en 1719 à la mort de De La Salle. La carte montre toutes les villes et villages où les Frères dirigeaient des écoles à cette époque.

خارطة امتداد المؤسّسة والتّربية اللّسّاليّة سنة ١٧١٩ عند وفاة دلاسال.

تظهر لنا الخارطة كل المدن والقرى التي كان الإخوة يديرون فيها المدارس إبّان تلك الحقبة.

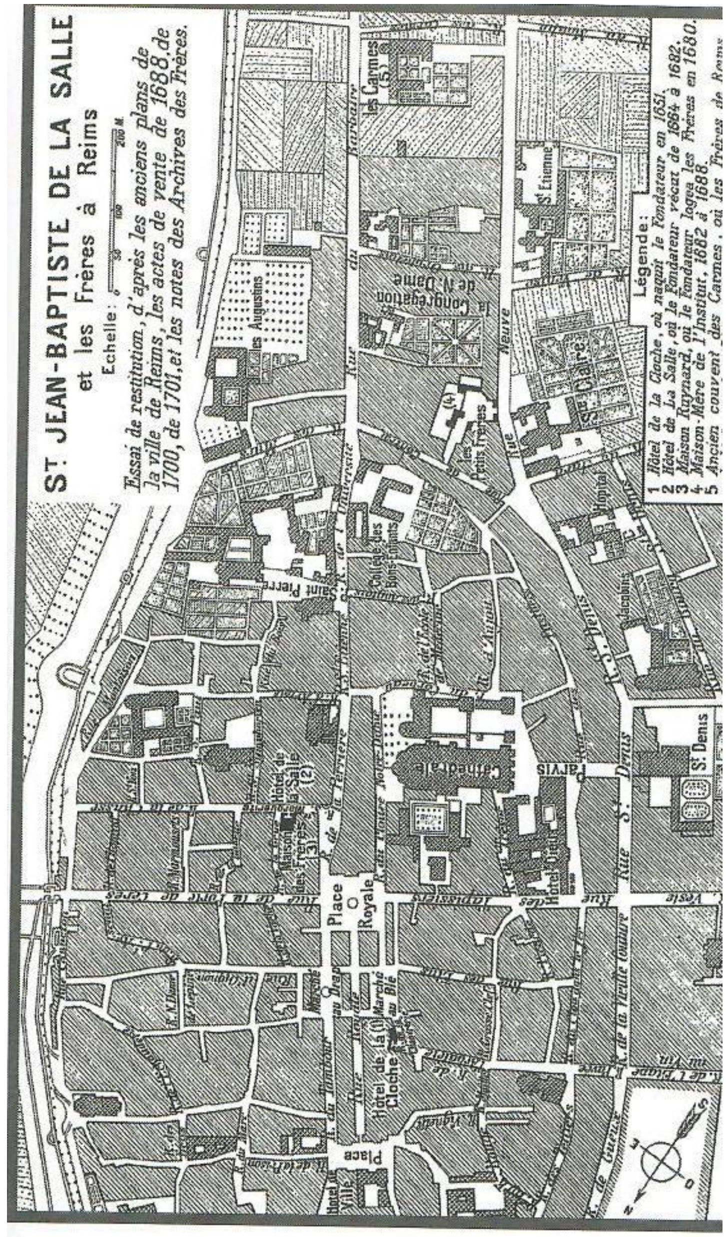

Ceci est une carte reconstituée de la ville de Reims au temps de Jean-Baptiste de La Salle. Elle a été créée à partir sur des registres de propriété de 1688, 1700, et 1701, ainsi que sur d'autres documents provenant des archives des Frères.

هذه خريطة أعيد تركيبها لمدينة رينس Reims في زمن دلاسال.
وقد رُسمت استنادًا إلى سجلّاتٍ ملكيّة لسنة ١٦٨٨ وسنة ١٧٠٠ وسنة ١٧٠١ وإلى وثائق أُخَر من أرشيف الأخوة.

الأجيال اللّاحقة

منذُ وفاة دلاسال سنة ١٧١٩ تبدّلَ عددُ المدارس المسيحيةّ التي أسّسها، ومؤسّسة إخوة المدارس المسيحيّة التي أبصرَت النّور تدريجيًّا مع ازديادِ عدد الإخوة في فرنسا ثمّ في العالم خلالَ القرونِ الثّلاثة الأخيرة. ازدادَ العدد من ٢٣ جماعة وحوالي مئة أخّ سنة ١٧١٩ إلى أكثر من ٩٠٠ أخّ إبّان الثّورة الفرنسيّة سنة ١٧٨٩ حصريًّا في فرنسا. بالرّغمِ من ذلكَ سنة ١٧٩٧ انخفضَ عدد الإخوة إلى أقلّ من ٤٠ فقد لجأ العديدُ منهُم إلى روما هربًا من الثّورة. في القرنينِ الثّامن عشر والتّاسع عشر عادَ الإخوة إلى فرنسا وازدادَ عددُهُم فأصبحَ أكثرَ من عشرة آلاف وقد انتشروا أيضًا في أنحاءِ العالم. سنة ١٩٦٥ بلغَ العددُ في المؤسّسة المستوى الأعلى وهو ١٦،٨٢٤. لحسنِ الحظّ أنّ الجماعاتَ الرّهبانيّة الأُخَر التي تأسّست في القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر استطاعَت أن تستندَ إلى خبرةِ المؤسّس والإخوة وطرقِهِم والكتبِ والمؤلّفات لإطلاقِ خدمتهم التّربويّة الخاصّة وتطويرها. عرفَت كتبُ " إدارة المدارس المسيحيّة" وقواعدُ حسنِ التّصرف واللّياقة المسيحيّة" شعبيّة خاصّة.

زار ماثيو أرنولد Matthew Arnold المدارسَ المسيحيّة في باريس وكتبَ تقريرًا حولَ أسلوبِهم لصالحِ غرفة البلديّات البريطانيّة سنة ١٨٥٩. متعدّدةً كانت الجمعيّاتُ الرّهبانيّة النسائيّة من المعلّماتِ في فرنسا بعدَ الثّورة الفرنسيّة التي اقتبسَت من الكتبِ الرّئيسة التي كتبَها الإخوة وكانوا يستعملونَها، فأعادَت تلكَ الجمعيّات صياغَتَها لاستعمالِها في تربيةِ البنات، في إيرلندا واسكوتلندا وإنكلترا. أخيرًا وصلَت تلكَ الكتب مع الرّاهبات الرّائدات اللّواتي سافرنَ إلى أستراليا وأبعدَ منها. أمّا الطوباوي ادموند رايس Edmond Rice وهوَ مؤسّس إخوة المدارس المسيحيّة في إيرلندا وقد كانَ على اتّصالٍ بالإخوة في فرنسا فقد أدخَلَ جوانبَ من الرّوحيّة اللسّاليّة والحياة الجماعيّة والتّنظيم المدرسيّ. لهذا السبب كانَ لكتاباتِه تأثيرٌ بشكلٍ غير علنيّ على تطوّرِ التّربية المسيحيّة الكاثوليكيّة بطريقةٍ تبدو شاملةً إنّما غيرَ معروفةٍ بشكلٍ كاملٍ اليوم.

أدّت تداعياتُ المجمع الفاتيكانيّ الثّاني إلى انخفاضٍ حادّ في أعدادِ من كانوا يتابعونَ الدّعوات الرّهبانيّة ومن بينها دعوةُ الإخوة. في الوقتِ نفسِه أدّى بزوغُ مناسباتٍ جديدة وظروفٍ مناسبة إلى دفعِ الإخوة إلى تقبّل شركاءَ لسالّيين في الرّسالةِ اللسّاليّة ومن ضمنِهم عددٌ لا بأسَ به من المعلّمات. ففي حينَ يستمرّ عددُ الرّهبان الذينَ يكرّسونَ أنفسَهُم لهذهِ الرّسالة بالتّناقص فإنّ عددَ المربّين الذينَ يستلهِمونَ جان باتيست دلاسال والجماعة اللسّاليّة والكاريزما الّتي تتحلّى بها يزدادُ بشكلٍ لهُ دلالته. الرّسالة اللسّاليّة تزدهرُ بشكلٍ غيرِ مسبوق وتستمرُّ العناية الإلهيّة في الارشاد إلى الطّريق.

خلالَ الخمسين سنة الماضية، تطوّرَت التّربيةُ المسيحيّة لتتضمّنَ استقبالَ الطّالبات ومؤسّسات التّعليمِ العالي ومجموعةً مهمّة من الرّسالاتِ التّربوية والتّدريبيّة. ففي حينَ ظلّت طبيعةُ الرّسالة كاثوليكيّةً في الأساس، وجدَ كثيرٌ من الأشخاص من كلّ الطّوائف مكانًا لهُم فيها، على سبيلِ المثال جامعةَ بيت لحم في فلسطين ومدارسَ اليابان وباكستان والهند ومؤسّساتٍ لسّاليّة أُخَر في أوروبا وأميركا الشّماليّة وأورازيا Eurasie. مع ما يزيدُ عن١،١٣٠ مدرسة في العالم تشملُ الرّسالة اللسّاليّة اليومَ حوالي ٣،٥٠٠ أخ ٩٣،٠٠٠ شريكٍ لساليّ هم في خدمة ١،٠١٢،٠٠٠ من الشّباب في ٨٠ دولة في العالم.

(لمزيدٍ من التّفاصيل الرّجاء زيارة الموقع الإلكترونيّ www.lasalle.org)
تمتدّ الكاريزما اللسّاليّة من المخيّماتِ الصّيفيّة للمسيحيّينَ والمسلمينَ في السّاحل في بوركينا فاسو -Sahel Burkina Faso إلى خطّ الدّفاعِ عن الأطفالِ في أستراليا "Kids Help Line" وهو خطّ مساعدةٍ مجانيّ وخاصّ يتلقّى بشكلٍ سرّيّ مكالماتَ المراهقين في أيّ وقتٍ وحولَ أيّ موضوع ـــ ويُجيبُ على ٣٠٠،٠٠٠ اتّصال سنويًّا ، إلى مراكزَ في أميركا الجنوبيّة تؤمّنُ التّربية والمساعدة للأطفالِ والشّبّان المهمّشينَ والمعوَزين، وإلى٦٤ مدرسةٍ كبيرة وجامعةٍ ممتدّة من الأميركيّتينِ إلى الفيليبين ، إلى الأخيرةِ في أثيوبيا.
إنّ الذين يشكّلونَ جزءًا من العائلةِ التّربويّة اللّسّاليّة هم جزءٌ من الحركةِ التّربويّة الكائنة منذُ زمنٍ وهي حيويّة ومُحبّة وتبثّ الرّوحَ في عددٍ كبير من المؤسّسات على المستوى الابتدائيّ والثّانوي والجامعيّ بالإضافةِ إلى هيئاتٍ تُعنى بالخدماتِ للشّبيبة والعائلة ومؤسّساتٍ أوكِلَت لها مهمّةُ التّربية. تؤمّنُ جميعُها تربيةً إنسانيّة ومسيحيّة للشّبيبةِ، بِخاصّة الفقراء، في رسالةٍ أسندَتها الكنيسةُ إليهم. خلالَ القرونِ الثّلاثة الماضية، أحدثَت جماعةُ المُربّين اللسّاليّين تغييرًا في حياةِ الملايين من الأشخاص، شبابًا وعجزة، إخوةً أو آخرين. بعضُهُم قد اعترفَت بهِم الكنيسةُ الكاثوليكيّة واحتفلَت بهم. فبالإضافةِ إلى المؤسّسِ هناكَ ١٣من إخوةِ المدارسِ المسيحيّة أعلنت قداستُهُم ...سبعةُ قدّيسينَ كانوا من الطّلّابِ القدامى أو منَ الأفرادِ الذينَ لهُم علاقة بالمؤسّسة. بالإضافةِ إلى ذلكَ، طُوّبَ ١٥١ من الإخوةِ و١٢ من الطّلّابِ القدامى والأعضاءِ المنتسبين. تسعةٌ من الإخوةِ أُعلِنوا مُكَرّمين. بالإضافةِ إلى هؤلاء، هنالكَ كثيرٌ من الإخوةِ والشّركاء اللسّاليّينَ اليومَ وفي الماضي قد عاشوا حياةَ تفانٍ وقداسة وهم بمُعظمِهِم مُتخفّونَ أو تعرِفُهُم قلّةٌ من الناس. كتبَ روبير بولتRobert Bolt في مسرحيّته "رجل لكلّ الفصول" إنّ للمعلّمينَ حضورًا قليلاً إنّما مهمّا. فيما يلي مقطعٌ من حوارٍ في المسرحيّة:
السير توماس مور:
لماذا لا تكونُ مدرّسًا؟ بإمكانِكَ أن تكونَ معلّمًا جيّدًا؛ وربّما عظيمًا
ريتشارد ريتش:
لو كنتُ كذلك، من سيعرف؟
السّير توماس مور:
أنتَ؛ تلاميذُك؛ أصدقاؤك؛ الله. هذا ليس جمهورًا قليلًا أو يُستهانُ به.

لقد كانت التّربيةُ منذُ القِدَم إحدى الرّسالاتِ الأكثر رحمةً لأنّ نتائجَ العمل ومثالَ المعلّم لا تكونُ أبدًا فوريّة ونادرًا ما يلمسُها هوَ شخصيًّا. تُزرعُ البذور، وتُغدَقُ النّصائح، ويؤمّنُ دعمٌ خفيّ، وتتمّ الخيارات، وتُعزّزُ العلاقات الإيجابيّة. التّربيةُ اللسّاليّة هيَ من نوعِ التّربية ذاك، فهيَ تتّبعُ المثالَ الذي رأى دلاسال من خلالِه مسيرتَهُ الشّخصيّة في الحياة، كيفَ أنّ الله قد قادَهُ "وربّاه" بطريقةٍ لم يعِ بشكلٍ كلّيّ أهميّتَها إلّا فيما بعد. علّمهُ الربّ من خلالِ توجيهِ أشياء متعدّدةٍ في حياتِه بحكمةٍ وسلام، من دون أن يرغِمَهُ في ميولِه واهتماماتِه ودفعه إلى التقدّم بطريقةٍ غير ملموسة، ولمدّةٍ طويلةٍ من الزّمن، بشكلٍ يجبُ أن يؤدّي من خلالِه التزامًا، ومنهُ إلى التزامٍ آخر، وهوَ ما لم يكُن يستطيعُ توقّعه من قبل. إنّ مقاربةً كهذِه هي وصفٌ رائع للجوانبِ الأكثر عمقًا والأفضل لكلّ مشروعٍ تربويّ.
إذا قرأتُم بتمعّن هذا الكتيّب فسوفَ تعلمونَ أنّ القدّيس جان باتيست دلاسال كانَ عاملًا قدّيسًا، مصلّيًا، كاتبًا، منظّمًا، يتكلّمُ ولا يتراجع أبدًا، كما قد يفعلُ معلّمٌ عظيم. حتّى وإن كانَ كلّ شيء يبدو بحالٍ سيّئة، أو المعارضة عنيفة، أو تُلهيهِ المشاكلُ العائليّة، أو تبدو القضيّةُ خاسرةً، فقد كانَ على أتمّ الاستعدادِ والثقةِ في أنّ الله سوفَ

يســاعدهُ على إيجادِ وســيلةٍ في حين كانَ يبدو أنّها مســتحيلة؛ لقد قدّمَ الله لهُ التّجربةَ والمعونةَ بشــكلٍ متوازٍ، وأعطاهُ عند الحاجة نوعًا من السّـلام، والثّقة التي تمحو أيّ مشـكلة. تلكَ الثّقة الجوهريّة بالآخر وبحضـورِ الله في الآخر هي أيضًـا في قلبِ قناعاتِ المربّي الحقيقيّ حينَ يلتقي بمن عُهد إليه بهم. " تعرّفوا إلى يسـوع تحتَ الملابسِ الرّثّة للأولاد الذينَ عليكُم تعليمَهم. اعبدوهُ فيهم." [٢٧]

بالنّسبةِ إلى المربّي اللسّاليّ كما بالنسبةِ إلى جميعِ المربّينَ المسيحيّين وإلى كلّ المربّين بكلّ بساطةٍ الله يكونُ قريباً حينَ يكونُ تلاميذُنا كذلك. اسـتنادًا إلى كتاباتِه ووحيِه فإنّ يسـوع المسـيح يكشـفُ عن ذاتِه في النّشـاط التّربويّ وفي التّلميذ، ويسوعُ المسيح هوَ الذي فيهِ ومن خلالِه يتمّ كلُّ تعليم. إطارُ التّربية اللسّاليّة هو المدرسة ومنزلُها المعلّم والإمكانيّةُ الخلاصيّة للتّربية كمنبع وحي. علمُ التّربية اللسّاليّة هو لسّاليّ ليسَ بالرّغمِ عن أبعادِه الرّوحيّة أو بموازاتِها إنّما بسـببِ ذلك. ففي النّهاية هيَ الحياة الروحيّة عند المؤسّـس وإخوته ما أثارَ وأعطى شـكلًا وحقّقَ عندَهُم علمَ التّربية. بإمكانِنا التّعبيرُ عن تلكَ الحياةِ الرّوحيّة بطرقٍ متعدّدة ومن خلالِ تقاليد مختلفة، ولكنّ تيّاراتها الأعمق كلّها تسـتطيعُ البروزَ من خلالِ إرثٍ مشـترك وهي تتمثّلُ بشـكلٍ جيّد من خلالِ هذا الشّخص الفريد. فهل من المستغرَب أن يكون جان باتيست دلاسال شفيعًا للمربّي؟

Pour aller plus loin

(Pour Approfondir) - Contribution Du Frère Alain Houry, F.É.C.

1. Des sites www.archives-lasalliennes.org / Institut des Frères / *Les écrits de Jean-Baptiste de La Salle* sont accessibles, ainsi que *l'introduction générale* et *présentations* correspondantes ; / À propos / *le document du mois* ou / Liens favoris / *Contacts utiles.*

2. Des livres avant 2000 F. Alphonse *À l'école de St J-B de La Salle, Introduction à sa spiritualité* LIGEL 1952 ; L. Burkhard *Un gamin de Paris 1961* ; J. Pungier Saint J-B de La Salle, *un saint du XVIIe s.* 1992 ; L. Burkhard & M. Sauvage *Parménie, la crise de J-B de La Salle et de son Institut (1713-1714) CL n° 57,* 1994.

3. Des livrets avant 2000 J. Pungier *Comment est née la Conduite des Écoles* 1980 ; J. Pungier *St J-B de La Salle, Une spiritualité pour enseignants et éducateurs* 1980 ; J. Pungier & Y. Poutet *Un saint aux prises avec la société de Sr. Graphic Designer (Medical) - Creative Circle Opportunity son temps* 1987.

4. Des livres récents Ch. Lapierre *Marche en ma présence,* M. de La Salle 1651-1719, 1985(réédition 2019) ; R. Deville *L'école française de spiritualité Desclée* 1987 ; M. Fiévet *Petite vie de J-B de La Salle* 1990 et d'autres livres parus depuis sur les jeunes et leur éducation, sur les plus pauvres des villes ; Y. Poutet *Genèse et caractéristiques de la pédagogie lasallienne* 1995 ; M. Sauvage *J-B de La Salle et la fondation de son Institut,* CL n° 55, 2001 ; A-P Gauthier *À l'école de la fraternité* Cerf 2015. Hours, Bernard. Jean-Baptiste de La Salle, *Un mystique en action*. Biographie. Salvator, Paris, 2019. 670 pages. (Commentaire : La première biographie critique du Fondateur. Ouvrage très recommandé.)

5. Deux ouvrages sur l'histoire de l'Institut
G. Rigault *Histoire générale de l'Institut des FEC jusqu'en* 1904 (9 volumes, *le 1er est sur Jean-Baptiste de La Salle et son temps*) Plon 1937-1953 ; H. Bédel *Initiation à l'histoire de l'Institut des FEC : Origines* 1651-1719, EL n° 5, 1994 (et les suivants : *XVIIIe s.*
1726-1804, EL n°6, XIXe s. 1805-1873, EL n°9, XIXe-XXe s. 1875-1928, ÉL n° 11, XXe s. 1928-1946, EL n°12).

Les références

1 Blain, Jean-Baptiste. *Le vie de Monsieur Jean-Baptiste de La Salle – Instituteur des Frères des Écoles chrétiennes.* Cahiers lasalliens (Maison Saint Jean-Baptist de La Salle, Rome) I:167, 169.

2 Lewis, Warren Hamilton, *The Splendid Century* (New York, NY: Quille, 1978), 63.

3 Lewis, Warren Hamilton, *The Splendid Century* (New York, NY: Quille, 1978), 64.

4 Thompson, William, ed., *Bérulle and the French School* (New York, NY: Paulist Press, 1989), 81.

5 Arnandez, Richard, FSC. « Primary Education in France in the Time of John Baptist De La Salle. » In *So Favored by Grace: Education in the Time of John Baptist De La Salle,* 103-44. (Romeoville, IL: Lasallian Publications, 1991), 115.

6 Joseph Bergin, Church, *Society and Religious Change in France 1580-1730* (New Haven and London: Yale University Press, 2009), 308.

7 De La Salle, John Baptist, *Conduct of Christian Schools,* trans. F. de La Fontainerie and Richard Arnandez, ed. William Mann, (Landover, MA: Lasallian Publications, 1996), 161.

8 De La Salle, John Baptist, *Meditations by St. John Baptist de La Salle,* trans. Richard Arnandez, and Augustine Loes, eds. Augustine Loes and Francis Huether, (Landover, MD: Christian Brothers Conference, 1994), 434 (Meditation 194.1).

9 Salm, Luke, *The Work Is Yours - The Life of Saint John Baptist de La Salle,* (Romeoville, IL: Christian Brothers Publications, 1989), 35.

10 Calcutt, Alfred, De La Salle: *A City Saint and the Liberation of the Poor through Education,* (Oxford, England: De La Salle Publications, 1993), 178-9.

11 Salm, Luke, *The Work Is Yours - The Life of Saint John Baptist de La Salle,* (Romeoville, IL: Christian Brothers Publications, 1989), 38. (Traduction française 2015: C'est ton œuvre).

12 Aroz, Leon, Yves Poutet, and Jean Pungier, *Beginnings: De La Salle and his Brothers.* Trans. Luke Salm., (Romeoville, IL: Christian Brothers Conference), 1980. 23.

13 Blain, Jean-Baptiste. *Le vie de Monsieur Jean-Baptiste de La Salle – Instituteur des Frères des Écoles chrétiennes.* Cahiers lasalliens (Maison Saint Jean-Baptist de La Salle, Rome) I:187.

14 Blain, Jean-Baptiste. *Le vie de Monsieur Jean-Baptiste de La Salle – Instituteur des Frères des Écoles chrétiennes.* Cahiers lasalliens (Maison Saint Jean-Baptist de La Salle, Rome) I:188.

15 Koch, C., Calligan, J., and Gros, J., eds., *John Baptist de La Salle: The Spirituality of Christian Education,* (Mahwah, NJ: Paulist Press, 2004), 113.

16 Salm, Luke, *The Work Is Yours - The Life of Saint John Baptist de La Salle,* (Romeoville, IL: Christian Brothers Publications, 1989), 39.

17 Calcutt, Alfred. *De La Salle: A City Saint and the Liberation of the Poor through Education,* (Oxford, England: De La Salle Publications, 1993), 171.

18 Battersby, W. J., *St. John Baptist De La Salle,* (New York: MacMillan, 1958), 65.

19 Calcutt, Alfred. *De La Salle: A City Saint and the Liberation of the Poor through Education,* (Oxford, England: De La Salle Publications, 1993), 282-3.

20 Salm, Luke, *The Work Is Yours - The Life of Saint John Baptist de La Salle,* (Romeoville, IL: Christian Brothers Publications, 1989), 79.

21 Parmi les écrits de De La Salle, on peut citer les suivants: *Syllabaire français* (1698), *Exercices de piété* (1696), *Instructions et Prières pour la sainte Messe* (1698), *Les Devoirs d'un Chrétien envers Dieu* (1703-1705), *Les Règles de la Bienséance et de la Civilité* (1703), *Du Culte extérieur et public que les chrétiens sont obligés de rendre à Dieu* (1703), *Cantiques spirituels à l'usage des Écoles chrétiennes* (1705), *Recueil de différents petits traités* (1711), *Conduite des Écoles Chrétiennes* (1720), *Méditations pour tous les Dimanches de l'année avec les Évangiles de tous les Dimanches* (1730), *Méditations pour le Temps de la Retraite* (1731), *Explication de la Méthode d'Oraison* (1739), *Les Lettres de saint John Baptist de La Salle* (1954), etc.

22 Calcutt, Alfred. *De La Salle: A City Saint and the Liberation of the Poor through Education,* (Oxford, England: De La Salle Publications, 1993), 518.

23 Salm, Luke, *The Work Is Yours - The Life of Saint John Baptist de La Salle,* (Romeoville, IL: Christian Brothers Publications, 1989), 158.

24 Calcutt, Alfred. *De La Salle: A City Saint and the Liberation of the Poor through Education,* (Oxford, England: De La Salle Publications, 1993), 552-553.

25 Brothers of the Christian Schools, *The Rule of the Brothers of the Christian Schools.* (Rome, Italy: Institute of the Brothers of the Christian Schools, 2015), 11-12.

26 Blain, Jean-Baptiste. *Le vie de Monsieur Jean-Baptiste de La Salle – Instituteur des Frères des Écoles chrétiennes.* Cahiers lasalliens (Maison Saint Jean-Baptist de La Salle, Rome) 3:177.

27 De La Salle, John Baptist, *Meditations by St. John Baptist de La Salle,* trans. Richard Arnandez, and Augustine Loes, eds. Augustine Loes and Francis Huether, (Landover, MD : Christian Brothers Conference, 1994), 179 (Meditation 96.3).

«Avez-vous une foi qui soit telle qu'elle soit capable de toucher les cœurs de vos élèves et de leur inspirer l'esprit chrétien ? C'est le plus grand miracle que vous puissiez faire, et celui que Dieu demande de vous puisque c'est la fin de votre emploi.»
Méd. 139,3

De La Salle

LE 15 MAI 1950, saint Jean-Baptiste de La Salle fut déclaré par l'Église catholique *Saint Patron de tous les éducateurs de l'enfance et de la jeunesse*. On trouve dans l'histoire de sa vie, dans ses écrits et dans son esprit toujours vivant, quelque chose qui prend racine dans le cœur des enseignants, partout dans le monde. Nous découvrons en lui une personne et un charisme qui valent la peine d'être connus, surtout de ceux et celles qui se dédient à l'éducation. Il s'agit d'une personne remarquable qui continue à façonner le monde éducatif d'aujourd'hui d'une manière qu'il n'aurait pas pu lui-même imaginer, inspirant des éducateurs de toutes origines et cultures, façonnant la manière dont ils voient les élèves, les enseignants et l'acte d'enseigner. Ses intuitions, son exemple et sa vision remplie de foi font naturellement écho chez les éducateurs de toute latitude, leur rappelant les raisons fondamentales de leur engagement dans l'enseignement. C'est un vrai saint pour tous les éducateurs. Ce petit livre raconte son histoire.

Frère George Van Grieken, PhD, est un Frère des Écoles Chrétiennes américain, présentement chargé des *Recherches lasalliennes* et du *Service des Ressources* à la Maison Généralice de l'Institut des Frères des Écoles Chrétiennes, à Rome, Italie. Il est également directeur du *Centre de ressources lasalliennes* du District de San Francisco - Nouvelle-Orléans, à Napa, en Californie.

CHRISTIAN BROTHERS CONFERENCE
LASALLIAN REGION OF NORTH AMERICA
RÉGION LASALLIENNE DE L'AMÉRIQUE DU NORD

Copyright © 2020 by Christian Brothers Conference, 415 Michigan Avenue NE, Suite 300, Washington, DC 20017

ISBN 978-1-884904-19-6
9 781884 904196 >